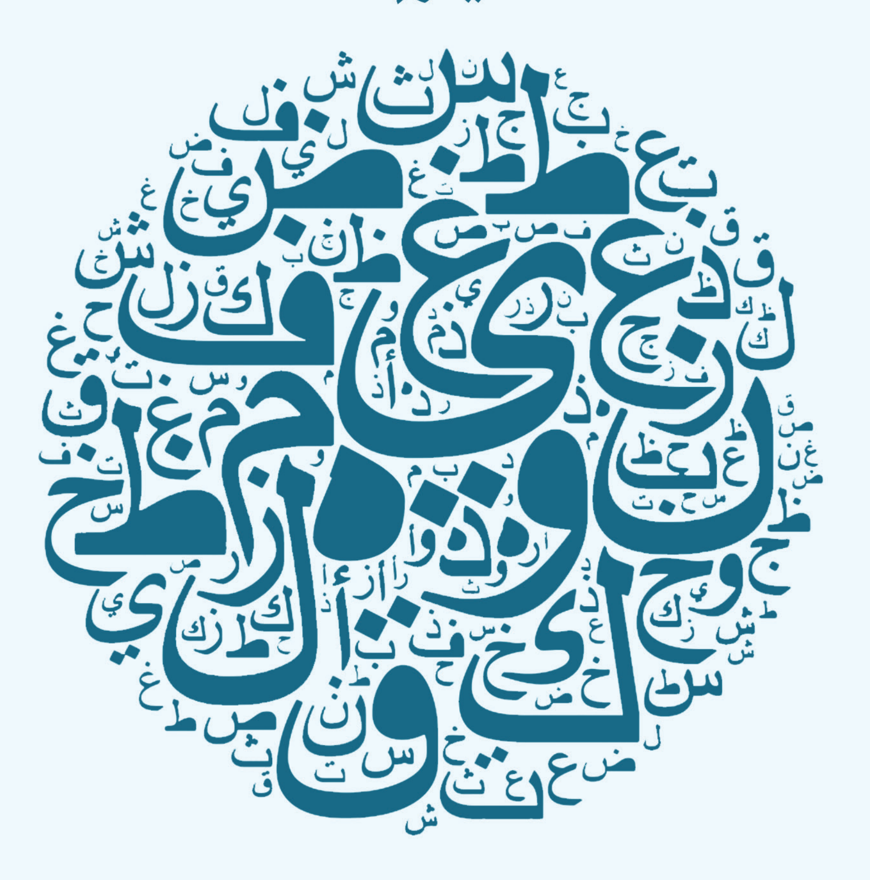


منشورات مركز فاطمة الفهرية للأبحاث والدراسات (مفاد)
سلسلة كتب جماعية: 4

اللغة واللهجة

قضايا وإشكالات



تأليف جماعي من تقديم وإعداد:

ذ. مصطفى العادل

ذ. حسن هموا




Manar al islam
islamanar.com

اللغة واللهجة قضايا وإشكالات



منشورات مركز فاطمة الفهرية للأبحاث والدراسات (مفاد)
سلسلة كتب جماعية: 4



كتاب: اللغة واللهجة: قضايا وإشكالات

تأليف جماعي من تقديم وإعداد: ذ. مصطفى العادل - ذ. حسن هموا

ردمــك: 978-9920-9474-3-5

الطبعة الأولى: 1441هـ / 2020م

التدقيق والإخراج الفني: islamanar.com

تنزيل الكتاب: 

اللغة واللهجة
قضايا وإشكالات

تأليف جماعي من تقديم وإعداد:

ذ. مصطفى العادل – ذ. حسن هموا

بسم الله الرحمن الرحيم

و الصلاة و السلام على رسول الله

إهداء

إلى الراحلين وفي قلوبهم غيرة على اللسان العربي

إلى الو اقفين في الصف الأول... دفاعا عن العربية في ساحة حرب اللغات

إلى الأجيال الصاعدة أبناء وجنود العربية...

نهدي هذا العمل

اللجنة العلمية والاستشارية:

لجنة التدقيق اللغوي:

- ذ. إبراهيم كلاسني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة السلطان مولاي سليمان - بني ملال.
- ذ. إدريس عاصيم، كلية اللغة العربية، جامعة القاضي عياض - مراكش.
- ذ. أنس ملموس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة مولاي إسماعيل - مكناس.
- ذ. براهيم مرداني، الكلية المتعددة التخصصات، جامعة سيدي محمد بن عبد الله - تازة.
- ذ. بنيونس عليوي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول - وجدة.
- ذ. خالد العنكري، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل - القنيطرة.
- ذة. خديجة المومني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول - وجدة.
- ذة. خديجة فخري، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة السلطان مولاي سليمان - بني ملال.
- د. ربيع الحمداوي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة السلطان مولاي سليمان - بني ملال.
- ذة. ربيعة لمقدم، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول - وجدة.
- ذ. رشيد بريشو، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل - القنيطرة.
- ذ. سعيد عدنان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول - وجدة.
- ذ. سلام أورحمة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول - وجدة.
- ذة. سليمة عالاة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول - وجدة.
- ذ. عبد الإله عاطلي، كلية اللغة العربية، جامعة القاضي عياض - مراكش.
- ذ. عبد العالي محجوبي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي - تطوان.
- ذ. عثمان هيبة الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول - وجدة.
- ذ. عز الدين أبو عنان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس- الرباط.
- ذ. عزيز المحساني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول - وجدة.
- ذ. كريم التايدي الوهابي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي - تطوان.
- ذ. لحسن عيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول - وجدة.
- ذ. محمد عيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول - وجدة.
- ذ. نجم الدين منار، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل - القنيطرة.
- ذة. هاجر الملاحي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول - وجدة.
- ذ. ياسين سعدان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس - الرباط.

محتويات الكتاب

تقديم

اللغة خاصية وميزة إنسانية، بها يتواصل، وبها يبني معارفه وتصوراته، وفهمه للوجود، والحديث عن اللغة واللهجة باعتبارهما مفهومين يقتضي أولا قبل كل شيء أن نحدد طبيعة كل مصطلح، وأن نحدد أوجه اتحاد المصطلحين.

نبدأ بمدلول اللغة في معجم المفردات، فهي مشتقة من «**قولهم: لغي بالأمر، إذا لهج به. ويقال إن اشتقاق اللغة منه، أي يلهج صاحبها بها**»[1]، فاللغة تحمل معنى اللهجة في اشتقاقها. فمعنى اللهجة متضمن في معنى اللغة.

واللغة كما عرفها ابن جني:» **أما حدها: فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم**»[2]. فاللغة أصوات يعبر بها الإنسان عن أغراضه ومقاصده، وهي القدرة على اكتساب واستخدام نظام متناسق من الأصوات المعبرة، وجد ليساعد الإنسان على التعبير ونقل أفكاره ومعارفه وأحاسيسه إلى الآخرين.

أما اللهجة فقد طُفت في بعض المعاجم بحثا عن مدلولها، ونقلت عن ابن فارس قوله:» **واللهجة: من قولهم: هو فصيح اللهجة، وهو اللسان**»[3].

« فاللام والهاء والجيم: أصل يدل على المثابرة على الشيء وملازمته، وسمي اللسان لهجة لأن كلا يلهج بلغته وكلامه»[4]

وعرفها إبراهيم أنيس في الاصطلاح العلمي بقوله: «مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة، وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات، لكل منها خصائص، ولكنها تشترك جميعا في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضها ببعض»[5]

1- ابن فارس، مقاييس اللغة، (لغو)، ج5/ 255.

2- ابن جني، الخصائص، ج1/34.

3- ابن فارس، مجمل اللغة، (اللام والهاء وما يماثلهما)، ج1/ 795.

4- خالد نعيم الشناوي، فقه اللغات العروبية وخصائص العربية، ص:179.

5- إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ص: 16

بعد هذا الطواف في مدلول المصطلحين -أظن أنه-لم يعد خافيا على القارئ الكريم ما بين المصطلحين من اتصال وثيق؛ فاللغة رأينا أنها تحمل معنى اللهج بالكلام وإخراج أصوات منظمة للتعبير عن غرض ما، واللهجة أيضا تحمل معنى اللسان، والصفات اللغوية التي يعبر بها الإنسان عن أغراضه.

نعوذ لذكر السبب الداعي لإثارة هذا الموضوع الذي استفزنا كثيرا، وأردنا أن نتقاسم هذا الهم مع ثلة من الباحثين لمعرفة آرائهم، وإفادة الموضوع بأفكار علمية قد تكون مشاريع مستقبلية في علم اللغة.

نقول: فقد لوحظ نوع من التمييز بين اللغة واللهجة على أن اللغة أسمى من اللهجة، وهذه الأخيرة أحط قدرا وقيمة من سابقتها، حتى بلغ الأمر ببعضهم أنه إذا أراد التنقيص من لغة الآخر لا يدخر جهدا في وصفها باللهجة، بدعوى أنها ليست مكتوبة مثلا، أو ليست مرسمة في دستور، أو ليست لغة إعلام...الخ، فهل كل هذا شرط لازم لنصف ما يتكلم به أي إنسان باللغة؟ وهذا -في نظرنا- يجافي العلمية التي تأبى هذه الألقاب، وتأبى نقل الصراعات الإنسانية والنزاعات المقيتة إلى العلوم والفنون التي لا تحتمل هذه الضوضاء والعنف، ولا تعترف بنسب زيد ولا بقدْر عمرو.

فقد قيل: « اللغة لهجة انتصرت سياسيا، واللهجة لغة انهزمت سياسيا».

وعطفا على الذي أشرنا إليه، لا بد من طرح أسئلة من قبيل:

لماذا التمييز والمفاضلة بين اللغة واللهجة؟ وعلى أي أساس علمي تقوم هذه المفاضلة؟

لماذا يتكلم «الفاعل السياسي» عن اللغة الرسمية ويشترط شروطا لإلغاء اللغات الأخرى بدعوى أنها لهجات؟ وبتعبير أدق، ما دخل السياسة في هذا التمايز بين كل ما يتكلم به الإنسان؟

ما حظ البحث العلمي الأكاديمي الرصين في السياسة اللغوية في بلدان شمال إفريقيا والشرق الوسط؟

يأتي هذا الاستكتاب ليوسع من دائرة البحث في هذا المجال المترنح بين السياسي واللغوي، وليقدم إجابات تروم العلمية في مسألة اللغة واللهجة والعلاقة بينهما، ثم علاقة الموضوع بالسياسات اللغوية والتخطيط اللغوي، وبعض مباحث اللسانيات التطبيقية والسوسيولسانيات وغيرها.

ويسهم في هذا العمل جماعة من الباحثين في اللسانيات واللغة من جامعات مغربية مختلفة، منها جامعة محمد الخامس، وجامعة السلطان مولاي سليمان، وجامعة محمد الأول، وجامعة القاضي عياض، وجامعة عبد الملك السعدي، وجامعة ابن طفيل. فإلى كل هؤلاء نتقدم بالشكر الجزيل.

ولا يفوتنا أن نشكر اللجنة العلمية الموقرة على توجيهاتها السديدة، وملاحظاتها القيمة، وتحفيزها المستمر، ودعمها القيم للباحثين الشباب. وكذا لجنة التدقيق اللغوي التي سهرت على تدقيق الأبحاث وتجويدها، وتزويد الباحثين بالملاحظات القيمة والتوجيهات السديدة للارتقاء بأعمالهم إلى مستوى يليق بتطلعات القارئ الكريم.

وفي الختام نتوجه بالشكر الخاص إلى مركز فاطمة الفهرية للأبحاث والدراسات (مفاد) على ترحيبه بهذا العمل، ودعمه للمبادرات العلمية، وخدمته المستمرة للباحثين الشباب

مصطفى العادل - حسن هموا

2020/09/28

اللغة واللهجة: مقاربة وصفية

رضوان لمقنطر[1]

مقدمة:

تعتبر قضية اللغة واللهجة من بين القضايا التي أثير الاختلاف حولها قديما وحديثا، سواء من حيث الاصطلاح والمفهوم، أو التعالق بينهما، أو من حيث الأفضلية.

وفي هذا السياق، فإننا نهدف من خلال هذه الدراسة، مراجعة التصور السائد حول مفهوم اللغة واللهجة، من خلال مقاربة مفهوميهما عند اللغويين العرب القدماء والمحدثين. كما نسعى إلى إقرار ذلك التفاعل بين اللهجة واللغة، من خلال بيان صلة اللهجات العربية بالقراءات القرآنية، ممثلين لهذه الصلة الوثيقة بلهجة الإمالة. كما أننا نروم من خلال هذا العمل، أن نبرز أهمية النظر اللساني في دراسة مثل هذه القضايا، إذ لا مفاضلة في معطيات أي لسان، بقدر ما تروم المقاربة اللسانية كشف نسقية اللغة وتفسيرها.

ويطرح موضوع الدراسة هاته إشكالات مختلفة، يحاول هذا العمل أن يجيب عنها، ويمكن ضبط بعض ملامح هذه الإشكالات في الآتي: ما حدود التقاطع المفهومي بين اللغة واللهجة عند اللغويين العرب؟ وأين تبرز صلة اللهجات بالعربية في القراءات القرآنية؟ وإذا سلمنا بثنائية اللغة واللهجة، وأن الإمالة ظاهرة لهجية، فكيف يحقق المتكلم صوتيا الإمالة؟

تشكل هذه الأسئلة بعضا من الإشكالات التي يطرحها موضوع الدراسة. وسنحاول الإجابة عنها من خلال مقاربة وصفية لموضوع اللغة واللهجة وفق نصوص اللغويين العرب القدماء والمحدثين.

وتحتم علينا طبيعة الموضوع، وإشكالاته تقسيم هذه الدراسة إلى خمسة محاور، ومقدمة، وخاتمة.

1- تخصص: صرف-صواتة، جامعة محمد الخامس-الرباط.

المحور الأول: مقاربة مفهوم اللغة واللهجة عند اللغويين العرب القدماء

سنقف في هذا المحور عند بعض التحديدات الاصطلاحية لمفهوم اللهجة في علاقتها باللغة، لتحديد مدى التداخل المفهومي بينهما.

فقد جاء في معجم العين: «اللهجة: طرف اللسان، ويقال: جرس الكلام، ويقال: فصيح اللهْجة واللهَجة، وهي لغته التي جبل عليها فاعتادها، ونشأ عليها»[1]. فالخليل هنا يعرف اللهجة تعريفا اصطلاحيا، ويجعلها معادلا للغة. بل إن «ابن فارس» صرح بهذه المساواة بين اللغة واللهجة: «واللهجة: اللسان، بما ينطق به من الكلام. وسميت لهجة لأن كلا يلهج بلغته وكلامه»[2]. وهذا يدل على أن العرب قديما كانوا يستعملون مصطلح اللهجة للتعبير عن اللغة.

بل إننا نجد من يستعمل مصطلح اللسان مرادفا للغة واللهجة، ودليل ذلك هذا النص الذي ورد في كتاب الإتقان في علوم القرآن، جاء فيه: «أنزل القرآن أولا بلسان قريش...ثم أبيح للعرب أن يقرؤوه بلغاتهم»[3].

هكذا، يتبين من خلال هذه التعاريف المنتقاة من نصوص اللغويين العرب القدماء، أنهم على الأرجح لم يميزوا بين المصطلحين: اللغة واللهجة، ويبدو أن ما يصطلح عليه اليوم بـ «لهجة» كان يطلق عليه القدماء «اللغة «، فقد وصفوا الاختلافات اللهجية بين القبائل العربية بأنها لغات.

المحور الثاني: مقاربة مفهوم اللغة واللهجة عند اللغويين العرب المحدثين

أما عند المحدثين، فقد عرف إبراهيم أنيس اللهجة بأنها: «مجموعة من الصفات اللغوية التي تنتمي إلى بيئة معينة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد البيئة»[4]. ويعرف محمد محمد داود اللهجة بكونها: «نمط من الاستخدام اللغوي داخل اللغة الواحدة، يتميز عن غيره من الأنماط داخل نفس اللغة بجملة من الخصائص اللغوية الخاصة، ويشترك معها في جملة من الخصائص

1- الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، مادة «لهج»، تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ج10، ص 47.

2- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة «لهج»، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل- بيروت، 5 /215.

3- نقلا عن السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مراجعة وتدقيق: سعيد المندوه، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، ط1966م،136/1.

4- إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة، ط 6، ص 16.

اللغوية العامة»[1]. ويفصل عبد الوهاب حمودات في هذا التعالق المفهومي بين اللهجة واللغة بقوله: «وأما اللهجة: فهي أسلوب أداء الكلمة إلى السامع، من مثل إمالة الفتحة والألف أو تفخيمهما، ومثل تسهيل الهمزة أو تحقيقها. فهي محصورة في جرس الألفاظ، وصوت الكلمات، وكل ما يتعلق بالأصوات وطبيعتها، وكيفية أدائها. واللغة: يراد بها الألفاظ التي تدل على المعاني: من أسماء وأفعال وحروف. ويراد بها النحو، وهو طريق تأليف الكلمات وإعرابها للدلالة على المقصود، وكذا يراد بها كل ما يتعلق باشتقاق الكلمات وتوليدها، وبنية الكلمات ونسجها. غير أن اللهجة قد تتميز بقليل من الخصائص التي ترجع إلى بنية الكلمات ونسجها، أو معاني بعض الكلمات ودلالتها. ومتى كثرت هذه الصفات، بعدت اللهجة عن أخواتها حتى تصبح اللهجة لغة قائمة بذاتها»[2].

فاللهجة عند المحدثين تدل على مجموعة من السمات النطقية التي تميز جماعة من المتكلمين عن غيرهم من متكلمي اللغة نفسها. كما يفهم من تعاريف اللغويين العرب المحدثين أن اللغة تتشعب إلى لهجات، غير أن اللهجة قد تستقل وتشيع حتى تصير لغة.

المحور الثالث: علاقة اللهجات بالقراءات القرآنية

تعتبر القراءات القرآنية المرآة التي تعكس الواقع اللغوي الذي كان سائدا في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، فهي أصل المصادر جميعا في معرفة اللهجات العربية، لأن منهج علم القراءات في طريقة نقلها يختلف عن كل الطرق التي نقلت بها المصادر الأخرى كالشعر والنثر...

وما يزيد من أهمية اللهجات، أن علماء القراءات قد نصوا على موافقة القراءة للعربية، وهذا الأمر يوضحه عبده الراجحي بقوله: «إن من شروط القراءة الصحيحة موافقة العربية ولو بوجه. وموافقة العربية ولو بوجه هو ما نعتقده من صحة القراءة بلهجات العرب على اختلافها...إذ أن العبرة في اختلاف القراءات إنما كانت لاختلاف اللهجات، وهذه القراءات الصحيحة ليست كل القراءات التي كان يقرأ بها المسلمون الأولون، لكنها اشتهرت على رأس الثلاثمائة، حين سبع ابن مجاهد القراءات السبع وشذذ ما عداها... ولو بقيت هذه القراءات حتى اليوم لكان محتملا أن تقدم لنا مادة لهجية كبيرة تعيننا على تصور اللهجات تصورا أكثر وضوحا»[3]. وعلى ذلك يقرر السيوطي أن «كل ما ورد

1- داود محمد محمد، العربية وعلم اللغة الحديث، دار غريب – القاهرة، 2001م، ص64.

2- عبد الوهاب حمودات، القراءات واللهجات، مكتبة النهضة المصرية، ط 1، 1368هـ/1948م، ص: 4-5.

3- عبده الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية، 1996م، ص83-88-87.

أنه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية سواء كان متواترا أم آحادا أم شاذا، وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية إذا لم تخالف قياسا معروفا، بل ولو خالفته يحتج بها في مثل ذلك الحرف بعينه»[1].

يفهم مما سبق الصلة الوثيقة بين اللغة العربية الفصحى واللهجات، فقد كانت اللهجات سببا في نشأة القراءات القرآنية. فالقراءات تناولت طرق الأداء الصوتي، فأصبح من اليسير للذي يسمع القرآن الكريم مرتلا على وجوه القراءات أن يقول هذه قراءة الحجازيين أو التميميين أو نحوهما.

المحور الرابع: مقاربة مفهوم الإمالة عند اللغويين والقراء

يحدد «ابن فارس» معنى الجذر «ميل» بقوله: «الميم والياء واللام كلمة صحيحة تدل على انحراف في الشيء إلى جانب منه. مال يميل ميلا»[2]. فيتضح من هذا التعريف اللغوي، أن الإمالة تفيد العدول والانحراف عن أصل الشيء إلى جانب منه.

وفي التحديد الاصطلاحي، فقد عرف «ابن يعيش» الإمالة بأنها: «... الإمالة في العربية عدول بالألف عن استوائه، وجنوح به إلى الياء، فيصير مخرجه بين مخرج الألف المفخمة، وبين مخرج الياء. وبحسب قرب ذلك الموضع من الياء تكون شدة الإمالة، وبحسب بعده تكون خفتها» [3]

ويعرج «ابن الجزري» على مفهوم الإمالة، مقسما إياها إلى إمالة شديدة، وإمالة متوسطة، إذ يقول: «والإمالة أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة وبالألف نحو الياء كثيرا وهو المحض. ويقال له: الإضجاع، ويقال له: البطح، وربما قيل له الكسر أيضا. وقليلا، وهو بين اللفظين، ويقال له أيضا: التقليل، والتلطيف، وبين بين. فهي بهذا الاعتبار تنقسم أيضا إلى قسمين: إمالة شديدة، وإمالة متوسطة، وكلاهما جائز في القراءة، جار في لغة العرب. والإمالة الشديدة يجتنب معها القلب الخالص، والإشباع المبالغ فيه. والإمالة المتوسطة بين الفتح المتوسط، والإمالة الشديدة»[4].

فيتبين من خلال هذه التعريفات، أن الإمالة منهج صوتي، الغرض منه تجانس الصوت بين الفتحة والكسرة من جهة، وبين الألف والياء من جهة أخرى. لذلك تكون الفتحة في الإمالة غير

1- جلال الدين السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، ط 1310هـ، ص 17.
2- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل- بيروت، 5/ 290.
3- ابن يعيش، شرح المفصل للزمخشري، تحقيق: إيميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية- بيروت، ط1، 5/ 188.
4- ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تحقيق: محمد علي الضباع، دار الكتب العلمية – بيروت، 2/ 30.

خالصة، بل مشوبة بصوت الكسرة، وكذلك الألف، لا تكون خالصة، وإنما مشوبة بصوت الياء. فالألف المحض لا يكون إلا بعد الفتح المحض، ويميل الألف إلى جانب الياء بقدر إمالة الفتحة نحو الكسرة. ويفهم أيضا، أن الإمالة تدخل في باب المماثلة الصوتية، لأن الفتحة تتأثر بالكسرة، فتنحو أصواتيا نحو جرسها، وهذا ضرب من التناسب بين الحركات، حتى يسهل النطق.

المحور الخامس: متكلمو لهجة الإمالة وآلية تحققها صوتيا

يكاد يجمع علماء العربية على نسبة الفتح لأهل الحجاز، وعلى أن قبائل نجد قد عرفت عنهم الإمالة في كلامهم. هذا الكلام يؤكده عبده الراجحي بقوله: «أما عن لهجات القبائل في الفتح والإمالة، فيكاد القدماء يتفقون على أن الفتح لهجة أهل الحجاز، وأن الإمالة لهجة عامة أهل نجد من تميم وأسد وقيس...فنحن نستطيع إذن أن ننسب الإمالة إلى القبائل البادية في وسط شبه الجزيرة وشرقيها والفتح إلى غربيها، ويبدو أن ذلك راجع إلى أن أهل البادية كانوا يميلون-في كلامهم-إلى الاقتصاد في المجهود العضلي، والإمالة تحقق لهم ذلك بما فيها من انسجام بين الأصوات»[1].

لكننا نتساءل جميعا عن كيفية نطق الفتحة الممالة؟ فبالنظر إلى التعريفات السابقة -الواردة في المحور الرابع-نجد أن الفتحة الممالة هي صوت فرعي ناتج عن التقارب الصوتي بين الفتحة والكسرة. فالفتحة [a] هي الصوت الذي ينخفض معه مؤخر اللسان حال النطق به إلى أقصى حد ممكن، مع رجوع هذا الجزء من اللسان إلى الخلف قدر الطاقة، ومع بقاء الصوت حركة، أي إذا تأخر اللسان أبعد من ذلك كانت النتيجة هي ظهور صوت آخر.[2] أما الكسرة [i] فيحددها صوتيا «كمال بشر»بقوله: «هي الصوت الذي يرتفع معه مقدم اللسان حال النطق بها اتجاه الحنك الأعلى إلى أقصى حد ممكن، مع بقاء هذا الصوت حركة، أي أنه إذا ارتفع اللسان أكثر من ذلك، ضاق المجرى إلى درجة ينتج عنه حفيف مسموع، فتكون النتيجة إصدار صوت آخر هو الياء»[3].

فإذا قارنا صوت الفتحة بالكسرة، فإن نطق هذه الأخيرة -أي الكسرة-يكون بدفع اللسان إلى الأمام وإلى أعلى حد ممكن دون خلق احتكاك أو تضييق مع سقف الفم. ويشكل ذلك خاصية للكسرة، التي تعد حركة عالية أمامية. والاختلاف بين الفتحة والكسرة، يتحدد في إعلاء اللسان مع

1- عبده الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية، 1996م، ص139-141.

2- كمال بشر، علم الأصوات، دار غريب للنشر- القاهرة، ط 2000م، ص 237.

3- المرجع نفسه، ص 227-228

الكسرة، وإسفاله مع الفتحة، من جهة، وفي رجوعه إلى الخلف مع الفتحة، وتقدمه إلى الأمام مع الكسرة، من جهة أخرى.

أما عن الوصف الأصواتي للفتحة الممالة، فلا نكاد نعثر عليه إلا عند اللسانيين المحدثين. ويصف «محمد الأنطاكي» الألف والفتحة الممالتين أصواتيا بقوله: «وتدخل معها (أي الألف) الفتحة القصيرة الممالة، وهي صوت طليق، يحدث من ارتفاع مقدم اللسان نحو منطقة الغار، ارتفاع يزيد عن ارتفاعه مع الفتحة المرققة، ويقل عن ارتفاعه مع الكسرة...»[1].

هذا التوصيف الأصواتي للإمالة يبين الآلية المعقدة التي يحدث وفقها صوت الإمالة، وأن دراسة قضية صوتية مثل الإمالة تحتاج إلى آليات صوتية دقيقة، ومقاربات نظرية لسانية مناسبة، تجعلنا نفهم بدقة كيفية التحقق الصوتي للإمالة عند المتكلم بها. ويظهر هذا الأمر بجلاء أنه لا مزية في التفريق بين اللغة واللهجة، فكلاهما أصوات محققة وفق نسقية معينة. ومن ثم فكلاهما مجال للدراسة اللسانية العلمية الدقيقة.

خاتمة:

لقد حاولنا في هذه الدراسة مقاربة موضوع اللغة واللهجة مقاربة وصفية، إذ تبين من خلال التعاريف المنتقاة من نصوص اللغويين العرب القدماء، أنهم في الغالب لم يفرقوا بين اصطلاحي اللغة واللهجة، وأن اللهجة في دراسات اللغويين المحدثين تدل على مجموعة من السمات النطقية التي تميز جماعة من المتكلمين عن غيرهم من متكلمي اللغة نفسها. وقد ظهر أنه لا مزية للغة عن اللهجة إن اعتبرنا هذه الثنائية عند الدارسين اللغويين، وخير مثال على ذلك احتفاء القراءات القرآنية بكل لغات العرب. وقد قدمنا نموذج الإمالة عن ذلك، باعتبارها لهجة تميمية، روعيت في بعض القراءات القرآنية، مثل قراءة ورش عن نافع. ومما ينبغي التأكيد عليه، هو أن معظم الاختلافات اللهجية، يتم عزوها إلى الناحية الصوتية، والأمر أكبر من ذلك بكثير، ففي اللهجات أيضا ما يعين على تعميق البحث الصرف-صواتي، ولعل هذا المجال لا يزال ميدانا بكرا يحتاج إلى أبحاث كثيرة، وخاصة في لساننا العربي الاشتقاقي. والإمالة نموذج ذلك، إذ درست في أغلب الأبحاث باعتبارها ظاهرة صوتية، لكن النظر اللساني العميق يجعلها ظاهرة صواتية تفوق المستوى القطعي. كما أن دراسة اللهجات ضرورية لفهم اللسان العربي، وتأصيل الدرس اللغوي، إذ توفر اللهجات مادة لغوية غزيرة تسعف

1- محمد الأنطاكي، المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، دار الشروق العربي - بيروت، ط3، ج 1، ص 42

الباحثين في إعادة قراءة معطيات العربية. ومن ثم طرح إشكالات بحثية جديدة، بل وإعادة التفكير في مجموعة من الأجوبة التي قدمت كمسلمات وحقائق علمية ثابتة.

البيبليوغرافيا

- ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تحقيق: محمد علي الضباع، دار الكتب العلمية – بيروت، ج2.

- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة «لهج»، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل- بيروت، ج5.

- ابن يعيش، شرح المفصل للزمخشري، تحقيق: إيميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية-بيروت، ط1، ج5.

- الأنطاكي محمد، المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، دار الشروق العربي -بيروت، ط3، ج 1.

- الخليل، العين، مادة «لهج»، تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ج10.

- الراجحي عبده، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، دار المعرفة الجامعية -الإسكندرية، 1996م.

- السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، مراجعة وتدقيق: سعيد المندوه، مؤسسة الكتب الثقافية -بيروت، ط1966م، ج1.

- السيوطي جلال الدين، الاقتراح في علم أصول النحو، ط 1310هـ.

- أنيس إبراهيم، في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة، ط 6.

- بشر كمال، علم الأصوات، دار غريب للنشر-القاهرة، ط 2000م.

- حمودات عبد الوهاب، القراءات واللهجات، مكتبة النهضة المصرية، ط 1، 1368هـ/1948م.

- داود محمد محمد، العربية وعلم اللغة الحديث، دار غريب – القاهرة، 2001م.

اللغة واللهجة: أية علاقة؟

عز الدين أبوعنان[1]

تقديم

تتأطر هذه الورقة البحثية ضمن هاجس معرفي، يتغيا توصيف طبيعة العلاقة بين اللغة واللهجة على نحو يسهم في إضاءة الإشكالات اللغوية التي تعتري اللغة في علاقتها باللهجة. فاللغة هي وعاء للفكر والثقافة والمعرفة ووسيلة للتواصل مع تراث الأمة وأداة مباشرة للنهضة والتنمية البشرية ووسيلة التفكير التي تحدد رؤية العالم. لذلك شكلت معرفتها أهم ركيزة لتحصين الهوية والذات والشخصية، فكل إنسان يحتاج إلى لغة يعبر بها عن أغراضه لأنها فكره ولسان حاله المعبر عن تراثه وهويته وماهيته. وتضطلع اللهجة بدور محوري وأساسي في تحديد معالم الهوية الجماعية، فلكل جماعة لغوية لهجتها التي تتعدد بتعدد الجماعات اللغوية، الأمر الذي يقودنا إلى البحث عن ماهية اللغة واللهجة والكشف عن العلاقة الجامعة بينهما من خلال طرح جملة من الإشكالات يمكن صوغها على النحو الآتي: ما علاقة اللغة باللهجة؟ وما العناصر المشتركة بينهما؟ ما أوجه الاختلاف التي تقود إلى تفضيل أحدهما عن الآخر؟ وما العوامل المتدخلة في هذا التمايز والتفاضل؟ كيف تحيا اللغة العربية مع أخواتها من اللغات واللهجات الأخرى؟ وكيف تدبر البلدان العربية هذا التعايش ضمن سياستها اللغوية؟

إشكالات سنحاول الإجابة عنها من خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول: اللغة واللهجة: أية علاقة؟

المبحث الثاني: اللغة واللهجة: وهم المفاضلة.

المبحث الثالث: السياسة اللغوية في البلدان العربية: واقع اللغة العربية ودور البحث العلمي في تطويرها.

1- السيميائيات وفلسفة الأدب والفنون، جامعة محمد الخامس – الرباط.

المبحث الأول: اللغة واللهجة: أية علاقة؟

قبل بحثنا في العلاقة الجامعة بين اللغة واللهجة، كان لزاما علينا البحث في الماهية، لأن هذا البحث يمكننا من تحديد طبيعة العلاقة، لذا سنكتفي بتعريفات بعض الباحثين.

المطلب الأول: اللغة: بحث في الماهية

حظيت اللغة بعناية فائقة من لدن الفلاسفة والمفكرين واللغويين، اذ اختلفت دلالاتها باختلاف المرجعيات الفكرية المؤطرة والمقاربات النظرية الموجهة التي يتكئ عليها كل باحث. فاللغة كما عرفها أبو الفتح عثمان بن جني في كتابه الخصائص» أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[1] ظاهر من هذا التحديد أن اللغة نظام من الأصوات المختلفة من حيث صفاتها ومخارجها يستخدمها الأفراد داخل مجتمعاتهم في التواصل الذي يؤطره توفر هذه المجتمعات على سنن أو شفرة تيسر عملية الفهم وتحقق الغاية من التخاطب والتواصل، وهنا يتبدى البعد التواصلي والنفعي للغة. وقد وافقه على تحديده سائر القدماء من علماء اللغة العرب، غير أن هذا التعريف يقصر اللغة على الأصوات الإنسانية المعبرة عن الأغراض ويخرج عن غيرها.

واللغة نظام من الإشارات والرموز والعلامات، فاستعمال القبعة مثلا للتحية من قبل صديقين، يصلح للتعبير عن مواقف متنوعة لها عنصر مشترك، ونفس الحال بالنسبة للوحات الطريق الاشارية التي تعلن عن طريق منحرف...[2]

وتتحدد اللغة عند صاحب المقدمة في قوله: «إن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصودة وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام فلابد ان تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان وهو في كل امة بحسب اصطلاحاتهم»[3]، فابن خلدون أشار في هذا التحديد إلى الجانب الوظيفي للغة، فلكل قوم لغة خاصة بهم كما أن اللغة ظاهرة اجتماعية بحسبه.

1- ابو الفتح عثمان بن جني: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية 1913 ص 33

2- ايريك بويسنس، السيميولوجيا والتواصل، ترجمة جواد بنيس، مجموعة البحث في البلاغة والاسلوبية، ط1، 2005ص 44

3- ابن خلدون، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993، ج2، ص 295

واللغة عند سوسير، نظام من الرموز الصوتية الاصطلاحية في أذهان الجماعة اللغوية تحقق التواصل بينهم ويكتسبها الفرد سماعا من جماعته» فاللغة إذا، نظام من العلامات له قواعده الخاصة ويتأسس على وجود علاقات.

إن اللغة ظاهرة ثقافية، ومن خصائص الظاهرة الثقافية الاكتساب، فالإنجاز الفردي للغة (الكلام) يرتبط ارتباطا وثيقا بالهوية الفردية التي تجعل الناس يتميزون بطريقتهم في الكلام وخاصة في اختلاف أصواتهم وطريقة نطقهم لبعضها وامتلاكهم لمعجم يختلف في كثير من مكوناته عن الآخرين.

المطلب الثاني: في معنى اللهجة وعلاقتها باللغة.

اللهجة هي لغة الإنسان التي جبل عليها واعتادها ونشأ عليها، وقد أطلقت اللهجة على اللسان أو طرفه فهو آلة التحدث بها، إنها طريقة معينة في الاستعمال اللغوي توجد في بيئة خاصة من بيئات اللغة الواحدة، لذا يمكن القول انها عادات كلامية لمجموعة قليلة من الناس ضمن مجموعة أكبر تتكلم لغة واحدة.[1] وقد عرفها الدكتور ابراهيم انيس:» بأنها مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة، وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع واشمل تضم عدة لهجات لكل منها خصائصها ولكنها تشترك جميعا في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تيسر اتصال افراد هذه البيئات بعضهم ببعض... وتلك البيئة الشاملة التي تتألف من عدة لهجات هي التي اصطلح على تسميتها باللغة»[2].

إن اللهجة تبعا للتحديد أعلاه هي جزء من اللغة، فالعلاقة بين اللغة واللهجة هي علاقة الكل بالجزء أو العام بالخاص، انها علاقة تداخل وتعايش يأتلفان وينصهران. فاللهجة اتجاه منحرف داخل اللغة وكلاهما يتصل بالصوت، فاللغة ترتبط به من حيت إفادة المعنى واللهجة من حيث صورة النطق، واللهجة إذا وفت بحاجة الجماعة واتصفت بخصائص جديدة أمكن لها أن تسمى لغة بحيث تنضج قواعدها ونظمها الصوتية والصرفية والتركيبية لأنها تستمد هذه العناصر من اللغة.

1- عبد الغفار حامد هلال، اللهجات العربية نشأة وتطورا، ط2 1993 ص33

2- ابراهيم انيس في اللهجات العربية، مكتبة الانجلو مصرية ط2، 1965، ص15

المبحث الثاني: اللغة واللهجة: وهم المفاضلة.

تبعا للعلاقة الأنفة الذكر فلا مفاضلة بينهما في واقع الأمر لأنهما يشكلان ملامح الهوية الفردية والجماعية وينميان العلاقات مع الآخرين إضافة إلى الإحالة على الأصل الطبقي والعرقي والديني والجغرافي. وفي هذا الصدد يقول التهامي الراجي:» إن الخطاب اللغوي يحمل معه زيادة على مضمونه المتمثل في التبليغ والتخاطب فوائد أخرى عديدة لا يعثر عليها إلا في كلام الكائن الناطق، انه يتضمن معلومات ثمينة يبلغها إلى السامع الذي يستطيع أن يعرف من جرس صوته، زيادة على جنسه وسنه حالاته الصحية والمناطق الجغرافية التي ينتسب إليها والطبقة الاجتماعية التي أثرت فيه...»[1] فمن طريقة كلامنا ولهجتنا إذا نشكل تصوراتنا عن هويات بعضنا البعض، وفي هذا السياق يقول جون جوزيف:» إن اتصالنا بالناس في عدد كبير من الحالات لغوي بحث يجري عبر الهاتف أو الانترنت والرسالة أو عبر قراءتهم بوصفهم شخصيات في كتاب إلى غير ذلك وتحت هذه الظروف يبدو أننا قادرون على تفحصهم وعلى معرفة ماهيتهم حقا – معرفة تلك الهوية الخفية مرة أخرى – بشكل مرض أكثر مما لو اكتفينا رؤيتهم ولم يحصل بيننا أي اتصال لغوي».[2]

إن تفضيل اللغة على اللهجة أو العكس مرده إلى عوامل سياسية، فالساسة والحكام يعدلون خطاباتهم بشكل يحقق مآربهم وأغراضهم السياسية عبر إضفاء أو تجريد أحاديثهم من كل المظاهر الصوتية والصرفية والمعجمية حتى يقبل بها المخاطب وتكون مفهومة لديه، فقد يخاطب فئة بلهجتها ويضفي عليه اساليب وحجج بغرض الإقحام والإقناع. كما تلعب وسائل الإعلام دورا أساسيا في تشكيل لغة عامة يفهمها الجميع للتأثير في المتلقين ودفعهم إلى الفعل، فاللهجات تتوحد لتشكل لغة عامة. ويمكن للمجموعة ان تتخلى عن لهجتها من خلال العلم والثقافة والدين لتتوجه صوب لغة موحدة (بكسر الحاء) وموحدة (بفتح الحاء).

المبحث الثالث: السياسة اللغوية في البلدان العربية: واقع اللغة العربية ودور البحث العلمي في تطويرها.

يقصد بالسياسة اللغوية مجموع التدابير والإجراءات المتخذة من لدن البلدان إزاء لغتها، وترتكز هذه السياسة اللغوية على عمليات التخطيط والتنفيذ والتتبع والتقويم بهدف تطوير لغتها وتوفير

1- التهامي الراجي توطئة لدراسة علم اللغة التعاريف دار الشؤون الثقافية العامة ص 110
2- جون جوزيف اللغة والهوية ترجمة عبد النور خراقي عالم المعرفة الكويت 2007 ص 20

الظروف المناسبة لجعلها قادرة على التعايش مع اخواتها من اللهجات واللغات الاخرى وهنا تطرح قضية الازدواجية اللغوية.

ان تطوير اللغة العربية يقتضي تشجيع البحث العلمي بعقد الندوات الفكرية وطنيا ودوليا للتعريف بلغتنا وذكر صفاتها ومميزاتها وتحصينها من كل المتربصين بها وحمايتها من الانتهاكات الخطيرة التي تتعرض لها. وفي هذا السياق حذر المسدي من خطورة ما اسماه بتلهيج الثقافة «فالمثقف والمبدع يقدم انتاجه الثقافي والإبداعي بالعربية الفصيحة ثم يتحدث عنه بالعامية، فالمثقف الذي يدير شانه الفكري و الأدبي والإبداعي بلغته القومية وهو يخلط ويكتب ويدون وينشر ويساجل ثم إذا حاور او ارتجل او تحدث عبر أمواج الأثير أو عبر شاشات المرايا توسل باللهجة، لهو مثقف متواطئ على ذاته الثقافية ولا يعنيك منه ما قد يبدو عليه من نزعة المجهود الأدنى انسياقا مع الكسر الذهني أو اتقاء لركوب المحاذير انه يحوك المشهد الأول من تراجيدية الانتحار اللغوي».[1]

ان مسؤولية البلدان في الحفاظ على اللغة العربية من كل تهديد داخلي وخارجي مسؤولية جسيمة، فالعربية تحيا مع أخواتها من اللغات الأخرى واللهجات في إطار من التعايش السلمي، لذا يتعين وضع كل لغة ولهجة في مكانها المناسب من الناحية الوظيفية بعيدا عن الصراع والتفاضل الذي لا طائل منه. مع ضرورة الحزم في اتخاذ قرارات جريئة لها صلة باستخدام اللغة العربية في مناحي حياتنا بعيدا عن فتور الهمم وتخاذل الارادات.

خاتمة:

تأسيسا لما سبق يمكن القول، إن اللغة واللهجة عاملان محوريان في تشكيل هويتنا، وتعد اللغة أحد المميزات الأساسية للكائن البشري، فهي وسيلة التواصل وتبادل الأفكار. تدخل مع اللهجة باعتبارها مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة في علاقة قوية تقوم على التعايش والتداخل، إنها علاقة الكل بالجزء أو العام بالخاص. والمفاضلة بينهما لا طائل منها لأنها توجه لتحقيق مآرب وأغراض شخصية تخدم مصالح الساسة.

ان اللغة العربية هي لغة الهوية الوطنية ولغة الهوية الدينية لذلك فحمايتها من كل تهديد مسؤوليتنا جميعا، اذ يتعين الدفاع عنها من كل الانتهاكات الخطيرة وتوفير الظروف الملائمة لتحيا مع أخواتها من اللغات واللهجات، وتشجيع البحث العلمي في مجال اللغة العربية لتطويرها والتعريف

1- عبد الله البريدي اللغة هوية ناطقة كتاب المجلة العربية الرياض 1434ص 41

بها في مختلف المحافل الوطنية والدولية، وجعل مؤسسة الإعلام في خدمة هذه اللغة والنهوض بها في مجال التربية والتعليم بمراجعة البرامج والمناهج التعليمية الحاضنة لهذه اللغة كوعاء حامل للثقافة والتراث الإنساني.

البيبليوغرافيا

ابراهيم انيس في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو مصرية، ط2، 1965م.

ابن خلدون، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993.

ابو الفتح عثمان بن جني: الخصائص. تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، 1913م.

اريك بويسنس: السيميولوجيا والتواصل ترجمة جواد بنيس، مجموعة البحث في البلاغة والأسلوبية، ط1، 2005م.

التهامي الراجي توطئة لدراسة علم اللغة، التعاريف، دار الشؤون الثقافية العامة.

جون جوزيف، اللغة والهوية، ترجمة عبد النور خراقي، عالم المعرفة، الكويت، 2007م.

عبد الغفار حامد هلال: اللهجات العربية نشأة وتطورا، ط2، 1993م.

عبد الله البريدي اللغة هوية ناطقة، كتاب المجلة العربية، الرياض، 1434هـ.

اللغة واللهجة: مسائل وقضايا

خالد بخداش[1]

تقديم

تعتبر اللغة أهم قناة للتواصل لدى الإنسان، وهي مما يتميز به الكائن البشري عن باقي الكائنات الأخرى فيعبر بها عن رغباته وأحاسيسه وأفكاره بهدف تحقيق التواصل وربط الصلة بالآخر، وتعد اللغة رافدا مهما من روافد حضارات الأمم والمجتمعات، فبها يُحفظ تاريخها ومن خلالها يعرف نسبها ومجدها، فاللغات تتطور وتحيا وتموت وتتأثر بالعوامل الخارجية.

وإذا كانت اللغة الأداة الأولى المعتمدة في التواصل بين بني البشر بفضل كونها ملكة تمنحهم هذا التميز، فالحديث عن اللهجة لا يخرج عن هذا السياق بالنظر إلى الترابط الشديد بين المفهومين حيث يصعب تحديد فرق دقيق بينهما. وتسعى البحوث اللسانية إلى دراسة هذه الخاصية الإنسانية على أساس علمي دون تفريق بين اللغة و»اللهجة»، في حين تتدخل عوامل متعددة -أهمها العوامل الجيوسياسية-في وضع الحدود بينهما ورسم سياسة لغوية مبنية على أساس التفاضل الحضاري والتاريخي. فما الفرق بين اللغة واللهجة؟ وهل من مرتكز علمي للتفاضل بينهما؟ وما تأثير السياسة في رسم المعالم التمييزية بين اللغات واللهجات؟ ثم ما وضع اللغات واللهجات في شمال إفريقيا والشرق الأوسط؟

الفرق بين اللغة واللهجة

يصعب إيجاد تعريفات دقيقة تظهر الفرق بين اللغة واللهجة بجلاء، وإذا كان ابن جني قد عرف اللغة بأنها «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[2] فإن اللهجة عند الخليل في معجم العين هي: «طَرَف اللسان، ويقال: جَرْس الكلام، ويُقال: فصيح اللَّهْجَة واللَّهَجة. وهي لغته التي جُبِلَ عليها فاعتادها، ونشأ عليها»[3]. والملاحظ أن التعريفين معا يتداخلان دون وضع حدود واضحة لمفهوم

1- اللسانيات وعلوم اللغة العربية، جامعة السلطان مولاي سليمان – بني ملال.

2- ابن جني، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، ج1، ص34.

3- الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ج3، مادة لهج.

اللهجة وعلاقتها الدقيقة باللغة، وفي قول الخليل: «وهي لغته التي جُبِلَ عليها فاعتادها، ونشأ عليها» إشارة إلى ما يمكن تسميته «باللغة الأم»، لكن الملاحظ أن الكلمة المستعملة هنا هي «اللغة» مما يضفي مزيدا من الإبهام عن حدود التماهي بين اللغة واللهجة؛ فحتى عنعنة تميم وكشكشة ربيعة وغيرها من التسميات التي أطلقت على لهجات القبائل العربية قديما لم يكن يسمى لهجات بل كانت تسميها لغات. لكن الثابت أن اللغة واللهجة تشتركان في التعبير عن أغراض المتكلم أي إن الأصوات التي يستعملها الإنسان في الكلام تؤدي وظيفة التواصل سواء أسمي ذلك لغة أم لهجة.

غير أننا قد نهتدي ببعض الخصائص والصفات للتمييز بين اللغة واللهجة على أساس علمي، وذلك لكون اللهجة تعبر عن كيفية استعمال اللغة الأم وجرس اللسان فيها، وقد تتفرع اللهجات عن اللغات وتنشأ بعدها، ويمكن أن تكون اللهجات نتيجة لتغيرات تطرأ للغة بفعل التغيرات الجغرافية والزمنية فتكون في اللغة كلمات خاصة برقعة جغرافية ما لكن بالانتقال إلى مجال جغرافي مغاير قد يفرض ذلك كلمات ومصطلحات جديدة لا تؤدي بالضرورة إلى إغناء هذه اللغة بل قد تولد من رحمها ما يسمى باللهجة، وكذلك فتعاقب الأزمان يؤدي إلى تناسل لغات فرعية (لهجات) من لغة أم معينة تحت تأثير عدة عوامل ترتبط أساسا بالتطور الذي يعيشه الإنسان باستمرار، إضافة إلى اعتبار اللغة ذات خصائص معيارية مقارنة باللهجة وهي تستعمل كذلك في التعاملات الرسمية والمؤسسية.

اللغة واللهجة: هل من أساس للتفاضل؟

يتميز الإنسان عن باقي الكائنات الأخرى بملكته وقدرته اللغويتين، فأوجدت كل مجموعة من الناس طريقة كلامية تتواصل بها وتحقق بها أغراضها في التعبير عن حاجاتها وإحساساتها وما تريد أن توصله للآخر، وبذلك يكون هذا النمط أو العادة الكلامية محققة لشروط التواصل الطبيعي بين عشيرة لغوية ما، فمتى كان الفهم والإفهام بين المتكلم والمخاطب واستوعب المستمع ما يقوله المتكلم من رسالة منقولة إليه عبر النمط الكلامي المشترك يتحقق شرط التواصل الفعال، وهذا ما يؤكده ابن جني بتعريفه للغة كما يؤكد ذلك ابن خلدون حيث يشتركان في مسألة أساس هي التعبير عن غرض المتكلم عبر مجموعة من الأصوات...

وإذا أخذنا مثلا اللغة المغربية الدارجة (أو ما يسمى باللهجة المغربية) نجد أن الناطقين بها قد تعلموها سليقة مثلما تعلم العرب الأولون اللغة العربية الفصحى سليقة دونما الحاجة إلى القواعد والكتب التعليمية، بل إنهم كانوا يكتشفون مكامن اللحن بالذوق والحدس وكأن اللغة جهاز منطقي

مبرمج لدى الإنسان منذ صغره فيصير آلة ناطقة بالنظام اللغوي الذي اكتسبه. ولهذا تصير اللغة ذات نظام وأسس متفق عليها من قبل العشيرة التي تتخاطب بها وإن لم تدون بشكل رسمي في قواعد ومعاجم خاصة، غير أن ما قد يميز اللغة عن اللهجة هو اقتران اللهجات بمجال جغرافي أضيق مقارنة باللغات التي تشغل حيزا جغرافيا كبيرا؛ فإذا كانت اللغة العربية الفصحى منتشرة على نطاق واسع ضمن ما يعرف بالدول العربية فإن اللهجات تنحصر غالبا ضمن رقعة جغرافية أضيق وتختص بفئة معينة من الناطقين بها وقد تتعدد داخل البلد الواحد.

اللغة واللهجة بين العلم والسياسة

لطالما ارتبط تاريخ اللغات بالتدخلات السياسية، حيث يتم رسم السياسة اللغوية لأي بلد ما بحسب المعطيات التاريخية والأيديولوجية، فقد يصير نمطٌ كلامي معين لغةً أو قد يصير لهجة بحسب الإرادة السياسية التي تحكم هذه التوجهات، وإذا نظرنا إلى اللغة العربية وجدنا أنها اكتسبت مكانتها اللغوية واستمراريتها من خلفية دينية متمثلة في حفظ القرآن الكريم عبر الزمن باعتبارها اللغة التي نزل بها، وبهذا استطاعت أن تفرض نفسها لغة قائمة بذاتها إضافة إلى ميزاتها وخصائصها الذاتية.

وقد ظهرت تيارات في الأقطار العربية تدعو إلى استخدام اللهجات المحلية بدل اللغة العربية، حيث ظهر في المغرب تيار مناصر لاستخدام اللغة المغربية الدارجة في الاستعمالات الرسمية وفي الإعلام وفي التدريس... ومن أبرز رواد هذا التيار نور الدين عيوش عضو المجلس الأعلى للتعليم المغربي ورئيس مؤسسة زاكورة للتربية. لكن هذه الدعوات –بالرغم من تزايد حركات مؤيدة لها- لم تنل قبولا واسعا ولم تبلغ هدف إزاحة اللغة العربية نظرا للأسباب التي سبق ذكرها، إضافة إلى المحاولات الفاشلة التي قادتها بعض الحركات «اللهجية» (أو ما يسمى بالتيارات الشعبوية) في الوطن العربي مثل تيار اللهجة اللبنانية الذي قاده مارون غصن عام 1929، وكذلك بعض المحاولات الحثيثة من بعض التيارات المصرية لجعل اللغة المصرية الدارجة بديلا عن اللغة العربية الفصحى وإحلالها المكانة الرسمية الأولى في البلاد.

السياسة اللغوية في شمال إفريقيا والشرق الأوسط

تنامت في السنوات الأخيرة تيارات منادية باعتماد اللغات العامية لغات رسمية، وظهرت لغات هجينة فرضتها ظروف عصر السرعة والاختصار والتركيز على المعنى دون اللفظ فأحلت الحرف

اللاتيني محل الحرف العربي مثل لغة الكتابة على مواقع التواصل الاجتماعي (أو ما يسمى بلغة الشات) واستبدال بعض الحروف العربية التي ليس لها مقابل في اللغات اللاتينية بأرقام منها «9» للقاف و«7» للحاء... لكن رغم هذه المحاولات وبفضل التقدم التكنولوجي وجهود الباحثين واللغويين لمسايرة هذا التطور استطاعت اللغة العربية أن تفرض نفسها ويتصدر الحرف العربي المراسلات الإلكترونية خصوصا مواقع التواصل الاجتماعي، وبالرغم من استعمال مواطني البلد الواحد هذه الحروف العربية في اللغة الدارجة إلا أن معظم مستعملي الوسائل التقنية الحديثة للاتصالات بين مختلف شعوب الدول العربية يتم باللغة العربية الفصحى نظرا لصعوبة بعض اللغات الدارجة حيث يجد المشرقيون مثلا صعوبة في فهم اللغة المغربية الدارجة.

ويرجع الفضل في هذه المكتسبات إلى تطوير طرق استعمال الحرف العربي حاسوبيا وقطع أشواط محمودة فيما يخص مكننة اللغة العربية والترجمة الآلية وتطور المعاجم الإلكترونية، إضافة إلى يسر وسهولة قراءة نص مكتوب بالحروف العربية مقارنة بنص مكتوب بالحروف اللاتينية؛ ولك أن تأخذ مثلا نصا من أربعة أسطر للدارجة المغربية مكتوب بالأحرف اللاتينية ثم قارنه بالمحتوى نفسه -بحيث يكون مكتوبا بالأحرف العربية- على مستوى الوقت المستغرق والجهد المبذول في الاستيعاب، سيتضح جليا أن هناك فرقا واضحا بين النصين إذ إن المكتوب بالأحرف العربية لا يتطلب جهدا كبيرا في التفاعل مع الكلمات وبالتالي سرعة القراءة والاستيعاب والتواصل الجيد.

ومن الأمثلة الناجحة في إثبات الذات تمكُّن اللغة الأمازيغية من فرض ذاتها كلغة رسمية لها وزنها وتاريخها، فبالرغم من النقص الذي مازالت تعاني منه المكتبة الأمازيغية على مستوى التقعيد والمعاجم لأسباب أهمها فقر الموروث المدون، فإنها استطاعت أن توجد لنفسها موطئ قدم ضمن لغات العالم المعترف بها واستطاعت توحيد «لهجاتها» في لغة موحدة بحروف تفيناغ. وهذا يبين أن الإرادة السياسية قد تجعل من اللهجة لغة وقد تجعل اللغة لهجة، وقد تؤدي إلى انتصار هذه واندحار تلك...

خاتمة

يمكن تلخيص ما سبق في عدة نقاط أهمها:

من الصعب تحديد فرق دقيق بين اللغة واللهجة وإن المفهومين متداخلان ومترابطان.

تؤدي اللهجة الوظيفة نفسها للغة من حيث التعبير عن الأفكار بوساطة الكلمات والجمل.

تشترك اللغة واللهجة في التعبير عن أغراض المتكلم وتؤديان معا وظيفة التواصل الإنساني.

من الخصائص والصفات التي تميز بين اللغة واللهجة كون اللهجة تعبر عن كيفية استعمال اللغة الأم، وقد تتفرع اللهجات عن اللغات وتنشأ بعدها.

قد تكتسي اللغة صبغة المعيارية والرسمية كأساس للتمييز بينها وبين اللهجة، كما أن اللهجات تقترن بمجال جغرافي أضيق مقارنة باللغات التي تنتشر في الغالب على نطاق واسع.

تتدخل السياسة والعوامل الأيديولوجية والتاريخية في رسم السياسة اللغوية لمختلف الشعوب.

لعب البحث العلمي وتطوير أساليب وآليات الدراسة اللغوية دورا مهما في انخراط اللغة العربية ضمن مسار التحديث والتجديد بغية مواجهة التحديات الراهنة.

مكنت الإرادة السياسية والبحث العلمي من الانتقال باللغة الأمازيغية نحو المعيارية والرسمية.

البيبليوغرافيا:

ابن جني، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، ج1.

الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ج3.

اللغة واللهجة: إشكالات في التنظير والتطبيق

محمد المودن[1]

مقدمة:

يتجاوز مفهوم اللغة عند الباحثين والسياسيين كونها وسيلة للتواصل إلى كونها وعاء للفكر والحضارة والتاريخ، وأداة طيعة يمكن استخدامها لمصالح الطبقة الحاكمة، وغير ذلك مما يجعل البحث في اللغة واللهجة قضية شائكة. فالباحث في نظرنا ملزم بالاطلاع على اللسانيات وعلم الاجتماع، وعلم النفس والتاريخ، والسياسة، وإلا كيف سيستطيع أن يفهم صمود لغة واندثار أخرى؟ فلا نستطيع أن نقول إن اللغة أو اللهجة تعيش بحياة أبنائها وتموت بموتهم؛ لأننا نملك معطيات عكس ذلك؛ فثمة لهجات أو لغات ماتت، وإن كان من يتكلمها يفوق الملايين، في حين عاشت لغات وانتشرت في العالم، ولم يكن يتكلمها سوى نسبة قليلة من السكان. إن اللغات تعيش تمييزا وتفاضلا من لدن السياسيين، كما تعرف إرادة للنهوض بها أو تهميشها وإقصائها، باختلاف طرق تنزيل ذلك. وهذا ما يجعلنا نفكر في ماهية اللغة، وعلاقتها باللهجة، فنتساءل عن الفرق بينهما، ولماذا هذا التمييز بينهما، وما مبررات ذلك؟ وما علاقة الفاعل السياسي باللغة واللهجة؟ وأخيرا ما حظ البحث العلمي الرصين في السياسة اللغوية في شمال إفريقيا والشرق الأوسط؟

الفرق بين اللغة واللهجة:

نعني باللغة هنا اللغة المعيار (Standard) سواء كانت قديمة (تراثية) أو حديثة. أما اللهجة «فمجموعة من الصفات اللغوية التي تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة»[2]. أما من جانب اللسانيات الاجتماعية[3] فالفرق بين اللغة واللهجة يكمن في الحجم، والمكانة؛ يعني ذلك «أن النوعية التي تتضمن العدد الأكبر من الوحدات اللغوية هي اللغة، بينما

1- باحث في الصرف والصواتة، جامعة محمد الخامس.

2- أنيس، إبراهيم، في اللهجات العربية، 2003، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ص15.

3- نذكر هنا زاوية نظر هندسون في كتابه علم اللغة الاجتماعي

النوعية الأصغر هي اللهجة»[1]. ومن حيث المكانة فاللغة «لها مكانة تفتقدها اللهجة»[2]؛ وهذا ما ذهب إليه هندسون في كتابه علم اللغة الاجتماعي. غير أننا نتساءل كيف تكتسب اللغة مكانتها على حساب اللهجة؟

المفاضلة بين اللغة واللهجة:

إن قيام دولة ما رهين بصنع لغة تصير فيما بعد لغتها القومية وتُعدها سمة تميزها عن غيرها، ولو كلفها ذلك القهر والاستبداد، كما يشهد على ذلك تاريخ قيام دول أوروبا ولغاتها، وقد يكون الدين عاملا مهما في نشر لغة ما، ولا نعلم مبررات صنع لغة ما[3]، كل ما نعلم أن الأمر مرتبط بالسياسة، بالطبقة الحاكمة، في غالب الأحيان، فهي الآمرة بالنوع اللغوي الواجب تبنيه في تلك الدولة، لأهداف سياسية رهينة بمصلحتها، لذلك فإن التفاضل القائم بين الأنواع اللغوية، في نظرنا، راجع إلى الإرادة السياسية بالأساس، وما دون ذلك خدمة لها من حيث درينا أم لم ندر.

مبررات المفاضلة بين اللغة واللهجة:

لا نملك أدلة علمية نستطيع أن نثبت بها أفضلية اللغة على اللهجة، تاريخيا ولسانيا. فاللسانيات تعدهما أنواعا لغوية بعيدة عن العشوائية، سواء أ اكتشف نظامها وصارت لها قواعد وأنحاء، أم لم يكتشف بعد، كالشأن بالنسبة للهجات. ومن حيث التاريخ فثمة أسباب سياسية جعلت من لهجة ما أو مجموعة من اللهجات لغة متواضع عليها[4]، «كتشكل الفرنسية من لهجة الأويل، والإسبانية من القشتالية، ولا يكون ذلك إلا باستعمال القوة»[5]. نستطيع القول إن اللهجة واللغة، في كونهما نظاما لسانيا، لا تفاضل بينهما، بينما في علاقتهما بالمجتمع نجد اللغة تفضل اللهجة بفضل السياسة.

الفاعل السياسي والسياسة اللغوية:

1- هدسون، علم اللغة الاجتماعي، ترجمه محمود عياد، 1990، ط2، عالم الكتب، القاهرة، ص 54

2- نفسه.

3- نوظف مصطلح صنع لغة، لأننا ننطلق من تصور مفاده أن لا لغة تولد كاملة.

4- نجد هذه المعايير عد هندسون، وهي عبارة عن مراحل أولها الاختيار، ثم التقنين، فتوسيع الوظائف، وأخيرا المواضعة على النوعية. ينظر هندسون: علم اللغة الاجتماعي، ص 57/56.

5- ينظر الفاسي الفهري: السياسة اللغوية والتخطيط مسار ونماذج، 2014، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدول لخدمة اللغة العربية، الرياض، ص6

يتدخل الفاعل السياسي في السياسة اللغوية، لأن «صنع القرار تعبير آخر عن مفهوم ممارسة السلطة»[1] ولا يمكن أن نتصور لغة خارج الفعل السياسي، وغالبا ما تنهج الدول سياسية اللغة الواحدة خدمة للتماسك الاجتماعي الذي تكمن فيه مصالحها؛ فالسياسي يدرك أن اللغة «أداة سياسية رمزية ومادية حاسمة»[2] يمكن توظيفها لإديولوجيات معلومة. ولا تلجأ الدول لبناء لغة ثانية منافسة للغتها القومية. بل تعمل على إعطاء الرسمية لبعض اللهجات أو اللغات المحلية كَرَدِّ فِعْل « على ضغوط أو مطالب قائمة... أو متوقعة مستقبلا «[3]. إنها تعمل على شعار: اللغة الواحدة-الدولة الواحدة.

البحث العلمي والسياسة اللغوية في شمال إفريقيا والشرق الأوسط:

ثمة خصائص طبعت اللغة في شمال إفريقيا والشرق الأوسط، منها كون هذه الجغرافيا تُعرف بأن لغتها القومية هي العربية؛ هذه اللغة التي كان الدين الإسلامي وراء انتشارها إلى جانب الحضارة الإسلامية الزاخرة، «وهو ما انعكس على غياب أي سياسة لغوية»[4] ولا يستطيع الباحث أن يعثر على دراسات جادة في السياسة اللغوية تستطيع إقناع من يذهب إلى أن اللغة العربية لغة لا يمكنها أن تساير التطورات العلمية أو التكنولوجية المعاصرة، وعلى سبيل المثال ما زال التعليم في المغرب يثير بين الفينة والأخرى إشكالية لغة تدريس العلوم. ويمكن أن نعد هذا دليلا على ضآلة البحث الأكاديمي في السياسة اللغوية بهذه المناطق، وغيابا لأية إرادة سياسية ناجعة.

خلاصات ونتائج:

نستطيع أن نخلص إلى أن كلا من اللهجة واللغة يمكن إدراجهما تحت مصطلح واحد يطلق عليه النوع اللغوي. وإن النظر العلمي إلى هذا النوع سيبعد عنه صفة التفاضل، سواء أكان لغة أم لهجة، لأن كلا منهما ذو نظام لساني تحكمه ضوابط منطقية ورياضية. غير أن ما يمكن أن يميز بين هذه الأنواع هو الإرادة السياسية، فهي التي تجعل من لهجة أو جملة من اللهجات لغة بعد أن تخضعها

1- كوبر، روبرت، التخطيط اللغوي والتغير الاجتماعي،2006، ترجمة خليفة أبو بكر الأسود، مجلس الثقافة العام، طرابلس، ص164.

2- الفاسي الفهري: السياسة اللغوية والتخطيط مسار ونماذج، ص7.

3- كوبر، روبرت، التخطيط اللغوي والتغير الاجتماعي روبرت، ص170.

4- الأمر نفسه يسري على اللهجات التي تخضع لقانون الغلبة، حسب ابن خلدون. وأنها جاءت عفوية وبتلقائية، دون تخطيط مسبق من لدن الدولة. ينظر الفاسي الفهري، السياسة اللغوية والتخطيط مسار ونماذج: ص9.

لمجموعة من المعايير، ويكون ذلك على حساب لهجات أو لغات أخرى، وغالبا ما يقترن إرساؤها بالقهر والظلم والاستبداد.

ليس ثمة تصور للغة ما دون حضور الفاعل السياسي، لما للغة من أبعاد يكمن بعضها في خدمة مصالح الطبقة الحاكمة، فكلما كانت الدولة قائمة على لغة واحدة أمكنها تحقيق تماسك اجتماعي، وتجنب دعوات الانفصال أو الاستقلال. وقد لا تعمد إلى سياسية الاقصاء والتهميش لكنها تلجأ إلى إرضاء أبناء تلك اللهجة أو اللغة بجعلها رسمية، وفي المقابل تعمد إلى تهميش البحث الأكاديمي في السياسة اللغوية، وكل ما من شأنه أن ينهض بها.

أخيرا نستطيع القول إن البحث الأكاديمي في السياسية اللغوية ما زال يشهد في شمال إفريقيا والشرق الأوسط تأخرا، ورثه من النظرة العربية للغة عبر العصور، بحيث لم تكلف الطبقة الحاكمة نفسها بالبحث عن سبل نشر اللغة وجعلها مسايرة للواقع، بعد أن كان الدين الإسلامي وراء انتشارها إضافة إلى زخم حضارتها. لكن الأمر اليوم غير ما كان عليه الأمس، بحيث شهد العالم تطورات علمية وتقنية هائلة جعلت أبناء العربية تنفذ إلى نفوسهم فكرة كون لغتهم عاجزة أمام هذه التطورات، وهو ما يضع أمام البحث الأكاديمي مسؤولية البحث عن سبل إثبات عكس ذلك.

البيبليوغرافيا:

أنيس، إبراهيم، في اللهجات العربية، 2003، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة

الفاسي الفهري: السياسة اللغوية والتخطيط مسار ونماذج، 2014، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدول لخدمة اللغة العربية، الرياض.

كوبر، روبرت، التخطيط اللغوي والتغير الاجتماعي،2006، ترجمة خليفة أبو بكر الأسود، مجلس الثقافة العام، طرابلس.

هدسون، علم اللغة الاجتماعي، ترجمة محمود عياد، 1990، ط2، عالم الكتب، القاهرة.

اللسان واللغة واللهجة بين التكامل والتفاضل

عبد الغني اسراوي[1]

مقدمة:

لعل المفاضلة بين الألسن البشرية من أكثر القضايا إثارة للجدل، وقد تمتد هذه المفاضلة لتشمل اللسان الواحد، فتميز فيه بين مستويات عدة كما هو الحال في اللسان الفرنسي مثلا، إذ نجد ثلاث مدونات أو مستويات لتحقق اللسان وهي: (Registres soutenu, courant et familier) ويمكن ترجمتها بالفصيح فالمتداول ثم الدارج. وإذا كانت هذه سمة عامة للألسن الطبيعية، فلا يعد اللسان العربي استثناء في هذا الباب، إذ يتم التمييز بين اللسان واللغات واللهجات.

وقد يلاحظ المهتم أن العربية تعرف بونا شاسعا بين هذه المستويات مما يدعونا إلى التفكير مليا في مسألة التفاضل بين اللسان واللغة أو اللهجة للوقوف على مظاهر الدقة العلمية في التصنيف إن توفرت، أو استنتاج المعايير المعتمدة سواء أكانت من داخل هذه المستويات أم اتكاء على عوامل خارجية ترجح كفة عنصر على آخر.

وقد ارتأينا في البداية محاولة الحسم في ما ينتاب هذه المفاهيم من انفصال أو اتصال معتقدين أن التحديد الإجرائي للمفاهيم من شأنه أن يذلل صعوبة المقارنة بينها، ومن ثم يقودنا إلى الإجابة عن أسئلة من قبيل: هل يصح التفاضل بين اللسان واللغة واللهجة؟ وإذا كانت الإجابة بالإثبات فما طبيعة المعايير المعتمدة في المفاضلة بينها؟ ثم ما هي العوامل التي تسهم في امتداد لغة وانكماش أخرى؟

1- باحث في سلك الدكتوراه، مختبر اللغة العربية وتحليل الخطاب، جامعة السلطان مولاي سليمان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال.

المبحث الأول: التحديد الإجرائي للمفاهيم:

اللسان:

يقول ابن فارس (ت 395هـ) في مادة [ل س ن]: «اللام والسين والنون أصل صحيح واحد يدل على طول لطيف غير بائن في عضو أو في غيره، ومن ذلك اللسان وهو معروف، والجمع ألسن فإذا كثر فهي ألسنة.»[1] وإذا كانت اللسانيات الحديثة تعد اللسان ظاهرة اجتماعية، فهذا ما نجده في التراث العربي عند الفارابي (ت 339هـ) الذي يجعل علم اللسان وأجزاءه مفتاح العلوم الأخرى، وهو عنده ضربان: «أحدهما حفظ الألفاظ الدالة عند أمة ما، وعلى ما يدل عليه شيء منها، والثاني قوانين تلك الألفاظ.»[2] وهو المعنى نفسه الذي أورده ابن خلدون (ت 808هـ) في مقدمته، حيث خصص فصلا وسمه ب « في علوم اللسان العربي» وجعل ضمنه علوم النحو واللغة والبيان والأدب.[3] والقاسم المشترك بين هذه الأقوال جميعها هو مراعاة البعد الاجتماعي وربطه بالأمة، أي إن اللسان سلوك اجتماعي لأبناء أمة معينة حيث استوت عليه لغتهم، وبذلك يكون اللسان أعم وأدق في الوقت نفسه مقارنة باللغة أو اللهجة.

ولعل هذا ما يفسر استعمال القرآن الكريم للفظ اللسان بدل اللغة أو اللهجة. يقول أنيس (1996م): «ويظهر أن العرب القدماء في العصور الجاهلية وصدر الإسلام لم يكونوا يعبرون عما نسميه نحن (باللغة) إلا بكلمة (اللسان) تلك الكلمة المشتركة اللفظ والمعنى في معظم اللغات السامية شقيقات اللغة العربية.

وقد يستأنس لهذا الرأي بما جاء في القرآن الكريم من استعمال كلمة (اللسان) وحدها في معنى اللغة نحو ثمان مرات.»[4]

1- ابن فارس أبو الحسين أحمد بن زكريا القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة، تح عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1979م، ج 05، ص 246.

2- الفارابي أبو نصر محمد، إحصاء العلوم، تح عثمان أمين، دار الفكر العربي، مصر، ط 02، 1949م، ص45.

3- ابن خلدون عبد الرحمان بن محمد، المقدمة، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، 1984م، ج 02، ص 711.

4- أنيس إبراهيم، في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط 08، 1996م، ص 17.

اللغة:

اللغة من لغا يلغو، وأصلها لغوة على صيغة فعلة، ولغوت بمعنى تكلمت، ومنها اللغو، أما التعريف اللساني وهو ما يهمنا بهذا الخصوص، وبالعودة إلى المعاجم اللغوية نلفي الخليل بن أحمد (ت 170ه) يعرف اللغة بقوله: «اللغة واللغات واللغون: اختلاف الكلام في معنى واحد.»[1] وهي عند ابن الحاجب (ت 646ه) في مختصره: «حد اللغة كل لفظ وضع لمعنى.»[2] أما ابن جني (ت 392ه)، فقد حددها بقوله: «حدُّ اللغة أصواتٌ يعبّر بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم.»[3] ونكاد نجد التعريف نفسه عند ابن خلدون (ت 808ه) مع مزيد من التدقيق، حيث يقول: «اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلابد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم».[4] ويشير هنا إلى أن اللغة تتعلق بقدرة المتكلم على الإبانة والإفصاح عن مقصوده وهي الأغراض التي عبر عنها ابن جني.

واللغة سمة مميزة للإنسان؛ يقول فندريس Joseph Vendryes (2014): «أصبح تكرار القول بأن الإنسان كائن اجتماعي أمرا مبتذلا. لعل من أول السمات الطبيعية الاجتماعية في الإنسان تلك الغريزة التي تدفع على الفور الأفراد المقيمين معا إلى جعل الخصائص التي تجمعهم مشاعة بينهم، ليتميزوا بها عن أولئك الذين لا توجد لديهم هذه الخصائص بنفس الدرجة.»[5] والغريب أن لفظة (اللغة) لم تستعمل في القرآن الكريم بل استعيض عنها باللسان، كما يوضح ذلك القول المستدل به آنفا لأنيس (1996م). وبذلك يكون اللسان في عرف العرب القدماء أعم وأشمل، بل وأفصح من اللغة، وهو ما أكده القرآن الكريم.

1- الفراهيدي أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، كتاب العين، تح مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، مادة (ل غ و)، ج 4 ص 449.

2- ابن الحاجب عثمان بن عمر بن أبي بكر، مختصر منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1985،01م، ص16.

3- ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، تح محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، المكتبة العلمية، القاهرة، مصر، 1952م، ج 01، ص 33.

4- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، تح علي عبد الواحد وافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2006م، ج03، ص 1128.

5- فندريس جوزيف، اللغة، تر عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصاص، سلسلة ميراث الترجمة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، 2014م، ص 302.

اللهجة:

وردت لفظة (لهجة) في المعجمات العربية مشتقة لمعنيين متقاربين: أولهما مأخوذ من «لهج الفصيل إذا تناول ضرع أمه يمتصه... وعند اعتياده الرضاع يسمى فصيلا لاهجا، والمعنى الآخر يعود إلى لهج بالأمر لهجا ولهوج وألهج بمعنى أولع بالأمر واعتاده أو أغري به... واللهج بالشيء الولوع به... واللهْجة واللهَجة بتسكين الهاء أو فتحها: جرس الكلام، ويقال فلان فصيح اللهجة بالفتح والتسكين، وهي لغته التي جبل عليها فاعتادها ونشأ عليها. واللهجة: اللسان، وقد يحرك.[1] والخيط الناظم بين هذه المعاني جميعها هو الاعتياد والارتباط بالأم، وهذا يقودنا إلى القول إن اللهجة تتصل بالصفات اللغوية التي يرضعها الطفل من لبان أمه، وهذا ما يجعل اللهجة في الغالب تتصل بالجماعة التي ينشأ فيها الفرد ويتلقى أول دروس الحياة فيها.

يقول أنيس (1996): «اللهجة في الاصطلاح العلمي الحديث هي مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة. وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات، لكل منها خصائصها، ولكنها تشترك جميعا في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض، وفهم ما قد يدور بينهم من حديث، فهما يتوقف على قدر الرابطة التي تربط بين هذه اللهجات.»[2]

والملاحظ أن هذا المعنى يتقاطع مع المعاني اللغوية المشار إليها آنفا، فاللهجة تصب في معنى طريقة الأداء الكلامي التي يتشربها الإنسان وسط عشيرته مما يجعله متعلقا بها ومولعا باستعمالها.

المبحث الثاني: اللسان واللغة واللهجة بين الانفصال والاتصال

صحيح أن اللسانيات الحديثة قد استطاعت الفصل بين اللسان واللغة منذ فرديناند دي سوسير الذي ميز بين اللغةLangage بصفتها ملكة بشرية مكتسبة، وبين اللسان Langue باعتباره ملكة طبيعية تم التواضع عليها اجتماعيا. ويرى أن اللسان إنتاج مجتمعي حادث عن ملك اللغة. لكن الدراسات العربية قديما وحديثا لا تتبنى التصنيف نفسه، إذ نجد العديد منها يستعمل كلا من

1- ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، تصحيح أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط 03، 1999م، مادة [ل هـ ج]، ج 12، ص 430.

2- أنيس إبراهيم، في اللهجات العربية، ص 16.

اللغة واللسان متداخلين، فينوب كل منهما عن الآخر، ودراسات أخرى تجعل اللسان مستوى أرقى من اللغة التي تتداخل في هذه الحال مع اللهجة.

وهذا التداخل يمتد مع اللسانيات التي تتحدث عن اللغة المعيارية مثلا ويقصد بها ما يعبر عنه آخرون باللغة النموذجية التي تستعمل في علم اللغة الاجتماعي، وهي المستوى اللغوي الذي يستعمل في التعليم والإدارة، وهي لغة الأدب والبحث العلمي، والتي تتبناها الدوائر والهيئات الرسمية، وغالبا ما تسمو فوق الخصوصيات المحلية أو الجهوية التي تنعكس على لغات بعض البيئات دون أخرى. وبإنعام النظر في هذه اللغة نجدها تشترك مع ما دونها من اللغات التي تتقاطع معها جذورا متعددة على مستوى الأصوات والمعجم والتركيب والصرف، لكنها ترتقي وتسلم من كل الشوائب التي تنتاب ما دونها. ومن ثم نعود إلى تأكيد البعد الاجتماعي للسان أو ما يسمى باللغة المعيارية أو الرسمية، إذ يحظى بالإجماع والدعم مقارنة باللغة التي لا تعدو كونها لهجة بالمعنى المتداول، وإن كنا لا نعدم إشارات إلى أن اللغة تدل على الصفات اللغوية المشتركة بين بيئات متعددة تختص كل منها بلهجة معينة. يقول أنيس (1996): « وتلك البيئة الشاملة التي تتألف من عدة لهجات، هي التي اصطلح على تسميتها باللغة.

فالعلاقة بين اللغة واللهجة هي العلاقة بين العام والخاص. فاللغة تشتمل عادة على عدة لهجات، لكل منها ما يميزها. وجميع هذه اللهجات تشترك في مجموعة من الصفات اللغوية، والعادات الكلامية التي تؤلف لغة مستقلة عن غيرها من اللغات.»[1] وباستقراء قول الدكتور إبراهيم أنيس نستشف أيضا نوعا من الخلط بين اللغة واللسان، وهذا ما يعزز ما ذهبنا إليه في بداية هذه الفقرة أن الدراسات العربية لا تفرق اللسان واللغة بالمعايير نفسها التي وضعها سوسير ومن جاء بعده، وإنما تجعلهما في الغالب من باب اختلاف اللفظ للدلالة نفسها، لأن الصفات التي ذكرها أنيس في قوله تنطبق على اللسان بالمعنى المتعارف عليه لسانيا.

والعربية الفصحى أو المعيارية أو اللسان العربي كان متميزا وجامعا للغات العرب على اختلافها، وهذا ما يدفعنا للقول إن ما كان يقصد بلغات العرب هي اللهجات العربية التي كانت تنتابها بعض العيوب وبعض التغيرات الصوتية التي تميزها عن غيرها، لذلك يتم الحديث عن عنعنة تميم (الهمزة عين) وفحفحة هذيل (الحاء عين) وتلتلة بهراء (كسر حرف المضارعة) وكشكشة أسد (الكاف شين) وكسكسة ربيعة (الكاف سين)، وقد جمعها ابن فارس (ت 395هـ) في باب سماه «باب اللغات

1- أنيس إبراهيم، في اللهجات العربية، ص 16.

المذمومة».[1] ويؤكد ابن فارس تفاوت لغات العرب بقوله: «ونحن وإن كنا نعلم أن القرآن نزل بأفصح اللغات، فلسنا ننكر أن يكون لكل قوم لغة.»[2] وهذه الاختلافات المذكورة تبين أن لكل قبيلة لهجتها الخاصة بها. والفصحى ناتجة عن تسيد إحدى اللهجات بسبب توفر عوامل ليست بالضرورة لغوية محضة، وإنما تتعلق في الغالب بالجغرافيا والسياسة والثقافة وبعوامل اجتماعية كما يوضح ذلك ابن فارس بقوله: «وكانت قريش، مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم. فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائرهم وسلائقهم التي طبعوا عليها. فصاروا بذلك أفصح العرب.»[3] غير أن القول بفصاحة قريش مقارنة بغيرها من قبائل العرب قد لا يجد سندا قويا يدعمه ما دامت قريش كانت ترسل أبناءها إلى البادية لتعلم اللسان الفصيح، وربما يكون العامل الديني مؤثرا، فقد شرفت قريش بانتساب النبي عليه أفضل الصلاة والتسليم إليها، وبشرف الكعبة وبنزول القرآن فيها... وكلها عوامل لا ترتكز على اللغة في التصنيف. يقول حسان (2000م): «إن الذين ادعوا تغلب لهجة قريش على لهجات القبائل الأخرى وتحولها إلى لغة مشتركة لا يقدمون سندا تاريخيا واحدا يدعم دعواهم، وإنما يستخرجون هذه النتيجة مما وقر في أنفسهم أنه قرائن حالية.

والواقع أن معرفتنا بالفصحى تبدأ في التاريخ بشعر امرئ القيس، ولسنا نعرف من أمر اللغة ولا أمر أدبها السابق على ذلك أكثر مما أشار إليه عنترة العبسي بقوله: (هل غادر الشعراء من متردم.) وليس في ذلك ما يشفي غليلا أو يبرر دعوى كهذه الدعوى.»[4]

ولعلنا نعيش الآن في عصر تطورت فيه اللهجات العربية متأثرة بالعوامل السالفة الذكر جغرافيا وسياسيا لتفرز اختلافات على مستوى النطق والتركيب والصرف بحسب العناصر اللغوية المتداخلة من جهة وتبعا لبنية اللسان وما يتدخل في بنائه. وما نلمسه من فرق بين اللهجات والفصحى راجع إلى اختلاط الأنساق اللغوية التي تشكل بنية كل لهجة عربية معاصرة مثل المغربية التي تعد نتاجا لتراكم مجموعة من الأنساق والأنظمة كالأمازيغية بمختلف تفرعاتها والفرنسية والإسبانية فضلا

1- للمزيد من التفاصيل ينظر ابن فارس أبي الحسن أحمد، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تح عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط 01، 1993م، ص 56-57.

2- نفسه، ص 59.

3- نفسه، ص 55.

4- حسان تمام، الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب: النحو، فقه اللغة، البلاغة، عالم الفكر، القاهرة، مصر، 2000م، ص 73.

عن العربية نفسها. ولا يقف التأثير في الأصوات والمعجم بل يمتد إلى التركيب والصرف. يقول حسان (2000م): «وفي ما نعرفه من اللغات القديمة التي مرت بمراحل اللغة العربية في الجاهلية وصدر الإسلام (أي في عصر الفصاحة) لم تكن تختلف كثيرا عما نعرفه نحن اليوم من أوضاع.

ففي وطننا العربي بين الخليج والمحيط نجد لكل قرية لهجة دارجة عامية تختلف قليلا أو كثيرا عن غيرها مما جاورها أو نأى عنها من اللهجات العربية الدارجة سواء من حيث أصواتها ومفرداتها وتراكيبها. وكل عربي معاصر يتكلم لهجته الدارجة في حياته المعتادة اليومية فيستعملها في البيت والسوق مثلا، فإذا كتب رسالة إلى صديق أو تكلم إلى عربي آخر ذي لهجة غير مألوفة عنده أو وقف ليلقي كلمة في الناس أو أقام الصلاة عمد إلى العربية الفصحى فجعلها وسيلة التعبير.»[1] فالفصحى أو العربية المعيار هي نتاج تلاقح مجموعة من اللغات أو اللهجات العربية، بانتقاء أجود ألفاظها وأنسبها للتعبير بيسر وفصاحة، مع تخليصها من كل العيوب والشوائب التي تتصل بخصوصية لهجة دون أخرى. غير أن الإشكال المطروح هو إذا كان هذا الأمر شبه محسوم في علاقة الفصحى باللهجات العربية المعاصرة، فإلى أي حد ينطبق الحكم نفسه على علاقة الفصحى بلغات قبائل العرب قديم؟ وبتعبير أدق: أكان المبدعون شعرا ونثرا يتحدثون في مجالسهم الأسرية وبين أهاليهم في القبائل اللغة نفسها التي يبدعون بها أم كانوا يستخدمون اللهجات؟ وإن كان الحسم صعبا في مثل هذه القضايا، إلا أن الاطلاع على ما كتبه عدد من أئمة العربية يكشف أن اللسان العربي غير اللغات المستعملة في الحديث اليومي، إذ يصرح العديد منهم بما يجدونه من عناء في الإحاطة بمعاني بعض الألفاظ التي وردت في المنثور أو المنظوم من كلام العرب. يقول ابن فارس (ت 395هـ): « ومن المشتبه الذي لا يقال فيه اليوم إلا بالتقريب والاحتمال وما هو بغريب اللفظ لكن الوقوف على كنهه معتاص- قولنا: (الحين) و(الزمان) و(الدهر) و(الأوان)- إذا قال القائل أو حلف الحالف: (والله لا كلمته حينا ولا كلمته زمانا أو دهرا. وكذلك قولنا: (بضع سنين) مشتبه. وأكثر هذا مشكل لا يقصر بشيء منه على حد معلوم.»[2] فإذا كان هذا شأن أهل العربية الأوائل وسادتها فكيف بمن بعدت الشقة بينه وبين العربية؟ وقد أشار بعض الدارسين المحدثين إلى الاختلاف بين مستوى اللغة الموظفة في الكلام اليومي ومستواها المعتمد في الإنتاج الأدبي قديما، مما حدا بالنحاة إلى التماس القواعد في لغة الأدب لسهولة الاستنباط منها ما دامت تخضع لنسق مضبوط وموحد إلى حد كبير، في مقابل نفورهم من

1- نفسه، ص 73.

2- ابن فارس أبو الحسين أحمد بن زكريا القزويني الرازي، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تح عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط 01، 1993م، ص 70.

اللغة المتداولة في البيوت والمحادثات لعدم انتظامها وفق نسق محدد. يقول حسان (2000): «لقد كان من السهل على النحاة سهولة نسبية أن يستخرجوا القواعد من اللغة الأدبية، أما الكلام اليومي في البيت والسوق والمحادثة العابرة فما أشق ما تستخرج منه القواعد حتى لو تم تسجيله بآلات التسجيل الحديثة، لأن هذا الكلام بعيد كل البعد عن الاطراد والاستمرار. فقد تجد فيه الجملة الناقصة والجملة التي حذف بعضها والجملة التي عدل صاحبها عن إكمالها... فلهذا السبب ولأسباب تعود إلى المحافظة على القرآن عدل النحاة عن استنباط النحو من الكلام العادي فكان عليهم أن يلجؤوا إلى لغة الأدب لأنها لغة القرآن والحديث والشعر، ولكن استشهادهم بالقرآن والحديث كان قليلا إذا قيس باعتمادهم في التقعيد والاستشهاد على لغة الشعر»[1]

والأمر نفسه حاصل في العصر الحديث كما أشرنا آنفا، إذ نجد بونا شاسعا في طبيعة الالتزام بالقواعد بين لغة الأدب وبين ما درج الناس في استعماله في مجالسهم ومحادثاتهم بفعل الميل إلى الخفة والتخلص من التكلف الناجم عن صرامة القواعد.

خاتمة

إن المفاضلة بين اللغات في مستوياتها المختلفة قد لا تكون لها جدوى كبيرة ما دامت الموازنة لا تستند على معايير ومؤشرات علمية دقيقة، فضلا عن كون التنوع مرده اختلافات في العوامل المؤثرة في اللغة لا في اللغة نفسها، أي إن اللغة واحدة (الفصحى أو المعيارية أو النموذجية أو اللسان...) وهي ناتجة عن اللهجات، أو تتفرع منها اللهجات بحسب التنوعات الصوتية أو التركيبية أو الصرفية أو المعجمية. ولا غرابة أن نجد تقاطعات كبيرة بين اللهجات واللسان وبين اللهجات في ما بينها، على أن اللهجة قد يقصد بها اللغة في بعض الدراسات، وفي الاستعمال العربي القديم، كما أن اللغة حين تقابلها اللهجة وتسمو عليها قد يقصد بها اللسان. وبفعل عوامل خارجية عن اللغة في ذاتها من قبيل الثقافة والحضارة والسلطان والسيادة... يتاح للهجة (لغة) أن تتسيد على نظيراتها وتغلب أنظمتها اللسانية في التصنيف لتتحول إلى الفصحى كما حدث مع لغة قريش مثلا.

والقاسم المشترك بين كل اللغات أو اللهجات التي تصب في اللسان العربي أو تتفرع منه كونها تستعمل الأصوات العربية مع اختلافات في النطق لا في الأصول، كما أنها تؤدي وظائف التعبير

1- حسان تمام، الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب: النحو، فقه اللغة، البلاغة، ص 79.

والتبليغ والتواصل والإخبار في سياقها الجغرافي بكفاءة، وتؤديها باعتبار ما هو مشترك في مجالات تتقاطع فيه مع لهجات أو لغات مجاورة.

وفي ظل ما يثار في البلدان العربية من نقاشات بشأن العربية الفصحى واللهجات، فحري بنا أن نركز الاهتمام على عوامل القوة المتمثلة في التنوع والغنى بدل تتبع مكامن الضعف، وهي قائمة بالفعل، وبذلك ينظر إلى اللهجات باعتبارها روافد تغني اللسان الجامع، ومن ثم يستند إليها في تفسير ما قد ينتابه من اضطراب جراء التغيرات الزمانية والمكانية، كما يحتكم إلى اللسان في كشف ملامح اللهجات وما يجمعها بأخواتها؛ أما العمل على إحلال اللهجات محل اللسان بدعوى التيسير والتقدم فتلكم انتكاسة تهوي بنا قرونا أخرى من التخلف.

البيبليوغرافيا

ابن الحاجب عثمان بن عمر بن أبي بكر، مختصر منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1985م.

ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، تح محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، المكتبة العلمية، القاهرة، مصر، 1952م.

ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، تح علي عبد الواحد وافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2006م.

ابن فارس أبو الحسين أحمد بن زكريا القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة، تح عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1979م.

ابن فارس أبي الحسن أحمد، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تح عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط 01، 1993م.

ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، تصحيح أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط 03، 1999م.

أنيس إبراهيم، في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط 08، 1996م.

حسان تمام، الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب: النحو، فقه اللغة، البلاغة، عالم الفكر، القاهرة، مصر، 2000م.

عزوز أحمد وخاين محمد، العدالة اللغوية في المجتمع المغاربي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، قطر، ط 01، 2014م.

الفارابي أبو نصر محمد، إحصاء العلوم، تح عثمان أمين، دار الفكر العربي، مصر، ط 02، 1949م.

الفراهيدي أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، كتاب العين، تح مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

فندريس جوزيف، اللغة، تر عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصاص، سلسلة ميراث الترجمة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، 2014م.

محسن محمد سالم، المقتبس من اللهجات العربية والقرآنية، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، مصر، 1986م.

اللغة واللهجة: معارك البقاء التي لا تنتهي

هشام ميري[1]

تقديم:

وَاهِمٌ مَنْ يعتقد أن تعريف اللغة واللهجة من اليسر بما كان، لكن هناك حروب علمية كبيرة ما تزال قائمة لإيجاد المعنى الحقيقي للغة واللهجة، كما يعتبر الوصول إلى نظرية تطور اللغات واللهجات عموما من الأمور الأكثر تعقيدا، لكننا سنحاول أن نورد تعريفا مختصرا للغة واللهجة، فاللغة هي: «تعبير عن الأفكار من خلال الحديث والأصوات إلى جانب الكلمات، وعملية الجمع بين الكلمات في جمل هي التعبير (أو الإجابة) عن تلك الأفكار».[2]

كما أن اللغة هي استخدام الأصوات والكلمات بطريقة منهجية للوصول إلى المعاني والتعبير عنها، سواء من خلال الكتابة أو النطق، كما تتميز اللغة بكونها مجموعة من الرموز والمعاني المحكومة بسلسلة من القواعد والضوابط النحوية، فاللغة نظام اتصال مشترك بين فئة من الناس، يتمكنون بواسطته من التفاهم والتعبير عن أفكارهم عن طريق الكتابة والنطق.

فقد عرفها ابن جني (ت 392 هـ) بقوله: «هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[3]؛ فأكد بذلك الطبيعة الصوتية للغة، ودلَّ على أنها ظاهرة اجتماعية، لا يتوفر على إحداثها واضع معين، وإنما نشأت بسبب حاجة الإنسان إلى التعبير والتفاهم مع بني جنسه.

فاللغة على وزن «فعلة من لغوت، أي تكلمت، وأصلها: لغوة... وقالوا فيها لغات ولغون... وقيل منها: لغي يلغى: إذا هذى، ومصدره: اللغا... وكذلك اللغو، قال سبحانه وتعالى: (وإذا مروا باللغو مروا كراما)[4]، أي: بالباطل، وفي الحديث: «من قال يوم الجمعة: صه، فقد لغا»[5]؛ أي: تكلم.

1- هشام ميري، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة السلطان مولاي سليمان-بني ملال.
2- هو تعريف عالم اللغويات والصوتيات الإنجليزي هنري سويت (Henry Sweet1845-1912).
3- ابن جني: الخصائص، ج 1، ص 32.
4- سورة الفرقان، الآية 72.
5- البخاري: صحيح البخاري، ج 2، ص 6، والنسائي: سنن النسائي، ج 3، ص 84.

وعند المحدثين، فهي مجموعة من اللهجات التي تنتمي إلى بيئة معينة[1]؛ فاللغة أشبه بالنبات، من خصائصها أنها تحيا بالرعاية والاستعمال، وتموت بالتَّرك والإهمال.

أما اللهجة تؤدي نفس الوظيفة من حيث التعبير عن الأفكار بواسطة الكلمات والجمل، لكن اللهجة تعتبر من اللغة أو نسخة محكية عنها، حيث تجتمع عدة لهجات في لغة واحدة تكون أقل انصياعا إلى القواعد اللغوية والنحوية، كما أنَّ اللهجة لا تكون مكتوبة ولا تدخل في نظم التعليم لأنها خالية من القواعد.

واللهجة أكثر خصوصية من اللغة كونها تميز فئة أضيق من الناطقين بلغة واحدة، حيث يتمكن الناطقون بالعربية من فهم بعضهم البعض لكنهم إن لم يتلقوا تعليمًا خاصا لن يتمكنوا من فهم الناطقين بلغة أجنبية كالفلامانية أو الألمانية، حيث تأتي اللهجة كتبسيط لقواعد اللغة والتخلص من قيودها واستغلال مرونتها في إدخال مصطلحات جديدة بشكل مستمر.

جاء في المقاييس: «اللام والهاء والجيم: أصل صحيح يدل على المثابرة على الشيء وملازمته، والأصل آخر يدل على اختلاط في الأمر. يقال: لهج بالشيء: إذا أغري به وثابر عليه وهو لهج. وقولهم: هو فصيح اللهجة، واللهجة: اللسان بما ينطق به من الكلام، وسميت لهجة؛ لأنه كلا يلهج بلغته وكلامه؛ والأصل الآخر قولهم: لهوجت عليه أمره: إذا خلطته»[2].

أما من حيث الاصطلاح، فاللهجة تسمى العامية أو المنطوقة أو المحكية أو المحلية أو الدارجة، وهي «اللسان الذي يستعمله عامة الناس مشافهة في حياتهم اليومية لقضاء حاجاتهم والتفاهم فيما بينهم»[3]؛ فهي اللهجة اليومية العفوية المكتسبة في السنوات الأولى للإنسان والتي يستعملها في تعاملاته العامة، وتختلف من منطقة إلى أخرى في سائر البلدان.

واللهجة في الاصطلاح العلمي الحديث: مجموعة من الصفات اللغوية التي تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة.

1- محيسن محمد سالم: المقتبس من اللهجات العربية والقرآنية، ص 7.
2- ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج 5، ص -ص 214 -215، مادة (لهج).
3- نايف معروف: خصائص العربية وطرائق تدريسها، ص 55.

أولا: علاقة اللغة باللهجة:

إن علاقة اللغة باللهجة هي علاقة بين العام والخاص؛ لأن اللغة تشتمل على عدة لهجات لكل منها ما يميزها، وجميع هذه اللهجات تشترك في مجموعة من الصفات اللغوية والعادات الكلامية التي تؤلف لغة مستقلة عن غيرها من اللغات»[1]، ومما لا ريب فيه أن اللهجة متفرعة عن اللغة المشتركة ومتأثرة بها وإن كانت تشويها أو تحريفا لها»[2].

وما ينبغي التنبيه إليه أن اللهجات العربية قديما كانت قريبة من اللغة الفصحى في خصائصها ومميزاتها بخلاف بعض الفوارق الصوتية مثل عنعنة تميم -التي تبدل فيها الهمزة عينا، وفحفحة هذيل، بإبدال صوت الحاء عينا، وتلتلة بهراء بكسر حرف المضارعة وغيرها»[3]. وحينئذ أمكن تسمية اللهجة لغة، ولكن بمرور الزمن واختلاط العرب بغيرهم من الأعاجم، نتجت لهجات أخرى ضمت كلمات فصيحة وأخرى معربة وثالثة دخيلة، مما وسع الهوة بين اللغة الفصحى واللهجة، وتعذر تسمية الثانية بالأولى، وأصبحت أقرب إلى العامية منها إلى الفصحى.

ولنتعمق في هذا الطرح، لابد من الحديث عن نشأة اللغات الأولى؛ فهناك من يقول إنّ اللغة نشأت بشكل تدريجي ومستمر، بحيث إنّ أجدادنا طوّروا هذه اللغة شيئا فشيئا من أنظمة صوتية سابقة حتى وصلوا إلى اللغات المستخدمة حاليا بالتعقيد الذي توجد فيه، ومنهم من يقول إنّ اللغات نشأت فجأة بين البشر ومثال هذا من يؤمن بأنّ الله هو من علّم الإنسان اللغة، وهنالك من يؤمن بأنّ اللغة ظهرت نتيجة لطفرة وراثية أصبح من خلالها الإنسان قادرا على التكلم.

أما اللهجة فنشأت عن اللغات المختلفة وانحرافها شيئا فشيئا عنها، وعندما يصبح هذا الانحراف كبيرا عن اللغة الأصلية ترتقي اللهجة لتصبح لغة قائمة بذاتها، وهكذا تنشأ اللغات المختلفة عن اللغات الأم، مرورا بمرحلة كانت تسمى به لهجات مختلفة، فلو افترضنا أن الإنسان كان يتحدث لغة واحدة عندما كان كل سكان الأرض مجتمعا واحدا يسكن مكانا واحدا، ومن ثمّ كبر هذا المجتمع وتوسّع في الأرض ليسكن المناطق المختلفة فيها، والتي كانت فيها العديد من الأمور التي لم يعرفها في بيئته السابقة، فلو افترضنا أنّ المجتمع الأول كان يسكن في الغابة فإنّه لن يعرف العناصر الموجودة

1- محيسن محمد سالم: المقتبس من اللهجات العربية والقرآنية، ص 7.

2- صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة، ص 360.

3- وقد سماها ابن فارس «اللغات المذمومة»: الصاحبي في فقه اللغة، ص 56 -57، وينظر، عبد القادر عبد الجليل: الأصوات اللغوية، ص 132 – 135.

في الصحراء على سبيل المثال أو عند البحر، ولهذا وتأثرا بالعناصر التي حوله بدأ لسان هذا المجتمع ينحرف شيئا يسيرا عن اللغة الأصلية فأصبحت تسمّى باللهجة، ومع المدة وتعاقب الأجيال أصبحت هذه اللهجة مبتعدة كثيرا عن اللغة الأصل، بحيث أصبحت لغة قائمة بحدّ ذاتها.

ثانيا: تأثر اللهجات واللغات:

تتأثر اللهجات واللغات بالعديد من العوامل المختلفة، فقد ذكرنا سابقا تأثر اللغة بالبيئة التي يسكنها أهلها، إلّا أنّ العديد من العوامل المختلفة تؤدي إلى تغيير اللغة واللهجة، فبإمكاننا على سبيل المثال ملاحظة هذا الأمر في اللهجات العربية المختلفة - والتي لم ترتق إلى اللغات بسبب حفظ اللغة العربية من خلال القرآن الكريم والآثار القديمة وارتباطها ارتباطا وثيقا بالدين الإسلامي- فبالرغم من كون اللغة العربية هي اللغة الأم لجميع الدول العربية؛ إلّا أنّ اللهجات العربية كثيرة، ومن الممكن أن توجد عشرات اللهجات حتى في الدولة الواحدة، فتأثرت اللهجات العربية على سبيل المثال باللغات الأم التي كان يتحدث بها أهل تلك الدول، فكما انتشرت العربية في بلد غير عربي، كلما أرسى العلماء العرب قواعد اللغة العربية وفقا للقرآن الكريم والآثار العربية القديمة؛ خوفا عليها من الضياع. وحتى في القرون الحديثة نجد أنّه حصل تطور كبير في اللهجات العربية المختلفة، فازداد الاختلاف فيها عما مضى، وذلك نتيجة دخول العديد من المصطلحات الجديدة على اللغة، والتي تم إدخالها واستخدامها وفقا للمصطلحات الأجنبية، كالتلفاز أو الراديو أو غيرها، بالإضافة إلى الاحتلال التي عانت منه الدول العربية لفترة طويلة، والذي أدّى إلى اختلاف لهجة كل منها وفقا للهجة محتلّها.

ثالثا: استخدام العامية كلغة بديلة عن اللغة العربية

كثرت الدعوات إلى استخدام العامية واللهجات كلغة بديلة عن اللغة العربية وبرزت هذه الدعوات في عدة أقطار عربية دعت صراحة إلى استخدام اللهجة المحكية في الكتابة والتدريس كلغة مستقلة عن اللغة العربية، فكانت أبرز هذه الدعوات دعوة تيار مارون غصن من لبنان عام 1929م، ونحا منحاه الشاعر اللبناني الراحل سعيد عقل إلى استخدام العامية اللبنانية كلغة بديلة عن اللغة العربية[1]؛ كما شهدت مصر تيارا يدعو إلى استخدام العامية المصرية في الكتابة بديلا عن العربية الفصحى، وربما كان أبرز انعكاسات هذا التيار حتى الآن هو افتتاح ويكيبيديا اللهجة المصرية كمقابل

1- أنور الجندي، الفصحى لغة القرآن، من كلام ويلمور، ص 131.

للفصحى[1]. ولم يكن المغرب في معزل عن هذه الدعوات، حيث نشأ جدل كبير في المملكة المغربية حول الدعوة إلى استخدام اللهجة الدارجة في التعليم بدلا من العربية الفصحى، حيث قاد هذا التيار عام 2013م نور الدين عيوش عضو المجلس الأعلى للتعليم المغربي ورئيس مؤسسة زاكورة للتربية.

لكنَّ هذه الدعوات جميعا (لبنان، مصر، المغرب) واجهت احتجاجا كبيرا من المثقفين والعلماء والمفكرين الصادقين مع أنفسهم والأوفياء لأمتهم كالرافعي وأحمد زكي ومحمود العقاد ومحمود شاكر وعمر فروخ وأنور الجندي وآخرين[2]؛ وأبانوا عما فيها من مغالطات وما تُخفيه وتتستَّر عليه من أهداف مقيتة. ولم تؤتِ ثمارها حتى الآن، علما أن أغلب الداعين إلى استخدام اللهجات الدارجة بدل اللغة العربية الفصحى يبررون دعواتهم هذه بجمود الفصحى وخروجها من دائرة الاستعمال اليومي بشكل كامل.

رابعا: تنامي ظاهرة الإلحاح على الدعوة لاستعمال الدارجة (النموذج المغربي)

إن المُتَتبِّع للوضع اللغوي بالمغرب يلاحظ بوضوح تنامي ظاهرة الإلحاح على الدعوة لاستعمال الدارجة المغربية خلال الفترة الأخيرة بشكل مُثير ولافت جدا. نلاحظ ذلك أولا على المستوى النظري: فيما نسمع ونقرأ ونرى، يوما بعد آخر، من تزايد عدد الأصوات والمنابر والكتابات التي تدعو إلى هذه الدارجة، تُغازلها وتُمَجِّدُها وتتنافسُ في اكتشاف محاسنها وتَعداد مزاياها وفوائدها، وتدعو لترسيمها واعتبارها اللغة الوطنية التي يمكن أن يجتمع حولها جميع المغاربة بدل الفصحى، ويمكن أن تصلُح للاستخدام في التعليم والإدارة وكل المجالات. ونلاحظُه ثانياً على المستوى العَمَلي: فيما هو حاصل بالفعل من اكتساح الدارجة لأهم فضاءات الإعلام (ظهور صحافة مكتوبة بالدارجة، ظهور إذاعات وقنوات فضائية مخصصة كلّيا لاستعمالها والترويج لها وتعميمها، طغيان استعمال الدارجة في برامج القنوات الفضائية والمحطّات الإذاعية الرسمية، حتى أضحى الصحفي صلاح الدين الغماري من القناة الثانية مستحوذا بشكل لافت، متحدثا بالدارجة وهو يخاطب المغاربة حول أخذ الحيطة والحذر من جائحة كورونا.

إضافة إلى ذلك نلاحظ باستغراب تدخل عناصر أجنبية عن البلاد في المشكل اللغوي الخاص بالمغرب، لا بغاية الدراسة أو الوصف العلمي الأكاديمي المُحايِد، ولكن بصفة القاصد المُتعمِّد

1- نفسه، ص 138.

2- الفرنكوفونية والسياسة اللغوية الفرنسية بالمغرب، الدكتور عبد العلي الودغيري، ص 168.

لتوجيه السياسة اللغوية للمغرب نحو الوجهة التي يراها صالحة لنا. فيُنصِّبُ من نفسه مُوجِّهاً تربويا ومُرشِدا لغويا لما ينبغي وما لا ينبغي عملُه، وقاضيا يُصدر الأحكام على هذه اللغة أو تلك، ويشتُم هذه ويمدح تلك. وكأنه لا يعلم أن مسألة اختيار اللغة بالنسبة لشعب من الشعوب هي مسألةُ سيادة لا يجوز لأجنبي أن يتدخَّل فيها؛ وكأننا أمام استمرارية لاستعمارية امبريالية جديدة، لكنها أحيانا كثيرة تكون استمرارية من أبناء جلدتنا.

فغيرُ خافٍ على أحد أن تفاقم حجم هذه الظاهرة، وبهذا الشكل المثير والزَّخَم الكبير الذي لم يسبق أن عرفه المغرب خلال مرحلة الاستقلال كلها -بتوسيع فضاءات استعمال الدارجة وتعاظُم الضغوط المُمارَسة لصالحها، وتضخُّم حجم الأصوات الداعية إليها -جاء مقترنا بِـ «تفاقم ظاهرة أخرى سارت معها جنبا إلى جنب، وبوتيرة واحدة، وهي ظاهرة توسيع استعمال اللغة الفرنسية وفتح كل المجالات أمامها»[1].

اللغة العربية منذ عهد قديم لها في الاستعمال:

- مستوى أدبي وعلمي، ووظيفتُه أن يُستخدَم في التعليم والإدارة والثقافة والمجالات العلمية والأدبية والدينية، وهو المستوى الذي يُطلَقُ عليه اسم العربية الفصحى التي من خصائصها أنها مشتركة بين كل الناطقين بالعربية من عرب وعجم ومسلمين وغيرِهم. وهناك مستوى آخر، تمثلُه لغة التعبير البسيط الدارج بين الناس في البيت والشارع والسوق والمعمل، وتقتصر وظيفته على تأمين التواصل العادي بين مختلف طبقات المجتمع وفئاته من المتعلمين وغيرهم، بين من يتقن الفصحى ومن لا يتقنها؛ وحين كان الوضع في العربية مستقرا على هذا النحو الطبيعي طيلة القرون الماضية كما لاحظ ذلك فِرجسون، لم يكن أمر الدارجة يثير دهشة أو انزعاجا من أحد، «فليس منا من لا يستعمل العامية أو الدارجة ويتواصل بها في حدود الوظيفة الموكلة لها بشكل تلقائي منذ

1- الفرنكوفونية والسياسة اللغوية الفرنسية بالمغرب، الدكتور عبد العلي الودغيري، ص 162.

قرون، إلى درجة أنها أصبح لها بدورها مستويات أو سجلات من الاستخدام متعددة ومتفاوتة»[1]؛ لكن الاستغراب اليوم هي هذه الدعوات المتزايدة، والظاهر أنها ليست بريئة - في اعتقادنا -

إن الذي يدعونا للخوض في موضوع العامية (أو الدارجة) بالمغرب، هو أن الذين يدافعون عن اللهجة أصبحوا يتحدثون عنها وكأنها العصا السحرية التي سوف تنقذ المغرب من تخلّفه الاجتماعي والاقتصادي والتنموي وتردِّي مستواه التعليمي، وهي التي تنقله بقدرة قادر إلى عصر الحداثة والتقدمية والديموقراطية، وأن كل المشاكل التي يعاني منها المغرب هي بسبب التشبث بالفصحى؛ هذه اللغة الميتة في نظرهم. وما يزيد من تفاقم المسألة هو أن الحديث عن العامية، واللغة بصفة عامة، لم يعد حديثا عاديا يعالجه وينشغل به المؤهلون لذلك من الباحثين المختصين والمحيطين بالموضوع، و«إنما أصبح مسألة لها أبعاد إيديولوجية، وشأنا شعبويا يفتي فيه العارِف والجاهل على السواء، وموجة يركب عليها أصحاب الأهواء من التيارات السياسية»[2].

خامسا: ثنائية الفصحى والعامية:

الحديث عن ثنائية الفصحى والعامية في اللغة العربية ليس جديدا في لغتنا، فهو حديث قديم متجدد خاض فيه وتناوله بالدرس والتحليل لغويون ودارسون كثيرون عرب ومستعربون، واهتم به القدماء من أسلافنا من خلال تأليفات عرفت بكُتُب لحن العامة أو حركة التصويب اللغوي، امتدت عبر تاريخنا الإسلامي من القرن الثاني الهجري (التاسع الميلادي) إلى يومنا هذا. فهي إذن ظاهرة مألوفة وموجودة في كل اللغات بنسب متفاوتة، ورصدها العلماء والدارسون في لغتنا منذ القديم، ولم تكن في يوم من الأيام عائقا يحول دون تطور الفصحى ونموها وانتشارها. كل ما هنالك أن العربية مرت عبر تاريخها الطويل بمراحل مد وجزر، فازدهرت تارة عندما ازدهرت حضارة مُستعمليها، وأصبحت - طيلة قرون - اللغة الحاملة للعلوم الدقيقة والآداب الرفيعة والفكر والفلسفة والثقافة،

1- يمكن أن نذكر من هذه المستويات على سبيل المثال: 1) دارجة راقية قريبة من الفصحى، ويستخدمُها عادةً، طبقةُ المتعلمين الآخذين بنصيب وافر من العربية الفصحى. وبها يُنظَم شعرُ الملحون والزَّجل، وتُفسَّرُ بعضُ الدروس الدينية وتقدَّمُ بعضُ البرامج الترفيهية الجيدة المستوى في الفضائيات والإذاعات. 2) دارجة وُسطى يستعملها عامةُ الناس في الشوارع والأسواق والبيوت ومختلف طبقات المجتمع: من متعلِّمين وغير متعلِّمين، ويكثُرُ فيها الخليطُ من العربي والأمازيغي والدخيل الأوروبي. 3) دارجة ساقطة مبُتذلة، تستعملُها فئةٌ خاصة من أدنى طبقات المجتمع تعلُّماً، ولها معجمٌ أو معاجم خاصة. 4) مستوى يستعمله المتأثِّرون بالثقافة الفرنسية أو الأجنبية عموماً، وهو لغةٌ هجينة لا هي بالعربية ولا بالأجنبية، وإنما كلمةٌ من هنا وأخرى من هناك.

2- الفرنكوفونية والسياسة اللغوية الفرنسية بالمغرب، الدكتور عبد العلي الودغيري، ص 171.

وعبرها تمَّ نقل المعارف العلمية إلى الغرب الذي بنى عليها نهضته الحديثة، ثم عرفت بعد ذلك مراحل تراجع بسبب تراجع أهلها وتخلفهم خلال فترة الانحطاط، ثم دار التاريخ دورته، وجاء عصر النهضة الحديثة، فبدأت العربية تدخل مرحلة جديدة من الصعود والتطور والارتقاء؛ فاللغة كائن قابل للتمدد والانكماش، ووضع أي لغة إنسانية تابع لوضعية أهلها، يزدهر بازدهارهم وينكمش بانكماشهم. واللغة أيضا هي أشبه بالنبات، من خصائصها أنها تحيا بالرعاية والاستعمال، وتموتُ بالترك والإهمال.

وكانت دعوات هؤلاء وأمثالهم الذين أرادوا أن يرسموا للأمة العربية سياستها اللغوية، غالبا ما تستند في الظاهر إلى مبررات مغلوطة وواهية تتلخص في المقولات المشهورة الآتية:

- الفصحى لغة صعبة والدارجة لغة سهلة ميسرة.

- الفصحى لغة قديمة وميتة؛ أي أنها لا تستعمل إلَّا في الكتابة وفي حدود ضيقة، بينما العامية لغة حية وتتطور باستمرار، وتستعملها كل الطبقات الاجتماعية.

- الثنائية (استعمال الفصحى والعامية) مشكلة كبيرة تعاني منها اللغة العربية مما يحتِّم عليها أن تنحو نحو اللغات الأوروبية التي تخلصت من اللاتينية واستعملت لغاتها الخاصة فتمكنت من التطور.

تبقى هذه المبرِرات واهية، لأن هناك عشرات النصوص التي تشهد بالنية المصرَّح بها لمحاربة اللغة العربية وتعليم القرآن الكريم، لأنه بتعليم العربية ينتشر الإسلام في المنطقة، ونشر الإسلام يسير في ركابه نشر الثقافة العربية، والأمران معا ضد سياسة فرنسا ومصالحها»[1]؛ ويكفينا هنا أن نذكِّر بما قاله جودفروي ديمُونبين في كتابه: الذي طبع في باريس سنة 1828م بعنوان: L'œuvre française en matière de l'enseignement. وفيه يقول متحدثا عن السياسة اللغوية التي رسمتها فرنسا للتعليم بالمغرب: «على أن برامج سنة 1920م قد أبعدت من جميع المدارس القروية دراسة العربية الفصحى، وأوصت بعدم فتح كُتّاب جديد في الأرض التي لا يكون موجودا بها من قبل»[2]. ويقول أيضا في موضع آخر متحدثا عن السياسة التعليمية الفرنسية بالمغرب: «وترتكز -أي هذه السياسة -على عدم إقامة كُتّاب قرآني في المدرسة حين لا يكون له وجود بالمنطقة، وعلى عدم تعليم العربية الفصحى

1- ينظر: الفرنكوفونية والسياسة اللغوية الفرنسية بالمغرب، الدكتور عبد العلي الودغيري، ص 168.
2- نفسه.

للأطفال»[1]؛ قول ديمُونبين واضح في إبراز سياسة فرنسا تُجاهَ اللغة العربية الفصحى كانت واضحة لا لبس فيها، وهي محاربة هذه اللغة بكل وسيلة ممكنة وقطع الصلة بكل ما يؤدي إلى نشرها وتعلمها.

لقد اجتمعت مصلحةُ الاستعمار الإنجليزي والفرنسي بالمشرق والمغرب، في القضاء على العربية الفصحى، والقضاء على هذه الفصحى تكمن وراءه عدة أهداف سياسية واقتصادية وثقافية ولغوية؛ والذي يؤكد هذا الاستهداف قولة ليوطي التي سارت شعارا يلخص الخطة الواضحة للاستعمار الفرنسي، وهي أن «العربية عامل من عوامل نشر الإسلام، لأن هذه العربية يتم تعلمها بواسطة القرآن، بينما تقتضي مصلحتنا أن نطور البربر خارج الإسلام»[2]. أما الاستعمارُ الإنجليزي فقد قال بلسانه ويليام جيفور ديلجراف: «متى توارى القرآن ومدنية مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه. ولا يمكن أن يتوارى القرآن حتى تتوارى لغته»[3].

إن أهم أهداف دعاة محاربة الفصحى هي الوصول إلى مزاعم باطلة مفادها أن العربية الفصحى عائق كبير أمام تطوُّر العرب وتقدمهم.

والمهمُّ هو أن نفهم، ويفهم المواطن المغربي، أن كل هذه الأطروحات التي تروّجُ حول هذه المسألة، إنما هي عبارةٌ عن حُزمة من المغالطات والتناقضات التي تفضي جميعها إلى حقيقة واحدة، وهي أن طرح مشروع الدارجة لا يؤدي إلى شيء يفيد المغرب في هذا الوقت ولا في أي وقت آخر، وإنما يؤدي فقط إلى:

- مُحاربةُ العربية الفصحى وإقصائها من كل الفضاءات والمجالات التي بقيت لها، وإحلال الفرنسية محلّها. وفي ذلك قطع نهائي لصلة الأجيال القادمة بكل تراثها العربي الإسلامي المغربي منه والمشرقي القديم والحديث على السواء، بل فيه أيضا قطع الصلة مع القرآن نفسه الذي لا يمكن فهمه فهما حقيقيا والتعامل معه تعاملا صحيحا إلا بالعربية الفصحى.

- إعطاء الفرنكفونية مزيدا من الوقت لتحتل مزيدا من المساحات والميادين وتتجذَّر فيها وتترسَّخ، وتسيطر وتُهيمن بصفة مطلقة.

1- نفسه، ص 169.

2- أنور الجندي: الفصحى لغة القرآن. ص 166.

3- نفسه.

- شغل الرأي العام المغربي وإلهائه بالخوض في أمور عقيمة مثل هذا الموضوع، لكي ينصرف عن التفكير الجدي في تنمية لغته الوطنية -وهي العربية الفصحى وتطويرها وإغنائها، وتيسير طرق تعلمها وانتشارها. لأن المشكلة الحقيقية ليست في اللغة ذاتها ولكن في الطرق والأساليب المستعملة في وصفها وتعليمها.

- صرف النظر عن التفكير الجدي في البحث عن الأسباب الحقيقية لفشل منظومة التعليم وعلى رأسها انخفاض مستوى التحصيل وضعف المردودية، وفشل الميثاق الوطني طيلة السنوات التي مضت في الوصول إلى نتائج مرضية، وتعليق هذا الفشل كله على مشجب اللغة العربية رغم كونها المتضرر الأول من تخبط السياسة التعليمية.

- تعطيل الحركة الحية في البلاد عن الانكباب على إنجاح مشاريع التنمية الاجتماعية الشاملة التي لا يمكن أن تتم على الوجه الكامل والسليم إلا بلغة وطنية قوية وموحدة، كما لا يمكنها أن تنجح في ظل معارك وهمية وصراعات لغوية مصطنعة تشغلنا عن الأمور المهمة والأوراش الكبرى التي ينبغي الانكباب عليها.

خلاصة:

تعتبر اللغة قياسية ومفهومة من قبل جميع الناطقين بها بينما تعتبر اللهجة أكثر خصوصية؛ من جهة أخرى فاللغة أكثر استقرارا من اللهجة، على الرغم أنَّ اللغة تتأثر بتيارات معينة وتتطور بإضافة ألفاظ جديدة، لكن اللهجة سهلة الاختراق أكثر من اللغة، لأنَّ اللغة تبقى محكومة بمجموعة من القواعد والضوابط التي تفتقر إليها اللهجة، كما هو الحال مع أغلب اللهجات العربية التي تأثرت بالاستعمار الفرنسي والإنجليزي بينما كانت اللغة أقلَّ تأثرا.

وإذا كانت الفصحى لغة موحدة القواعد والاستعمال بين سائر الأقطار العربية وكل الناطقين بها، فإن العامية من خصائصها أنها متباينة ومختلفة الاستعمال من قطر إلى آخر، بحكم اتساع الرقعة الجغرافية لانتشار العربية من المحيط إلى الخليج. وحتى داخل البلد الواحد، تختلف العامية من منطقة إلى أخرى، بسبب العزلة التي كانت مضروبة على كل منطقة منها، حين لم تكن وسائل الاتصال متوفرة بشكل سريع وفعال كما في وقتنا الحاضر. ولا شك في أن انتشار التعليم واتساع شبكة الطرق وتعميم الإذاعة والتلفزة والصحافة المكتوبة ووسائل النقل السريع، كان لذلك كله

أثره الكبير في التقريب بين اللهجات داخل القُطر العربي الواحد، وحتى بين الأقطار العربية بعضها ببعض.

البيبليوغرافيا

أبو الفتح عثمان ابن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1371هـ-1952م.

أحمد بن شعيب النسائي، سنن النسائي، ط-مؤسسة الرسالة ناشرون.

أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399هـ-1979م.

أحمد بن فارس بن زكريا الرازي أبو الحسين، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ط 1، 1418 هـ-1997م.

الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار ابن كثير، لبنان.

أنور الجندي: الفصحى لغة القرآن. دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع السلسلة، الموسوعة الإسلامية العربية، 1982م.

بوجمعة وعلي، الفرنكوفونية انفتاح لغوي أم استعمار ثقافي، مجلة الإشعاع، العدد التاسع، شتنبر 2017م.

صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة، دار الملايين، بيروت، لبنان، 2009م.

عبد العلي الودغيري الفرنكوفونية والسياسة اللغوية والتعليمية الفرنسية بالمغرب، السلسلة الجديدة، رقم7، ط 1، الرباط، كتاب العلم، 1993م.

عبد العلي الودغيري، الدعوة إلى الدارجة بالمغرب، الجذور والامتدادات -الأهداف والمسوغات -في الدارجة والسياسة اللغوية في المغرب، المركز المغربي للدراسات والأبعاد المعاصرة، 2010م.

عبد العلي الودغيري، اللغة والدين والهوية، ط 1، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 2000م.

عبد القادر عبد الجليل: الأصوات اللغوية، دار صفاء للنشر والتوزيع، 1998م.

القرآن الكريم.

محيسن محمد سالم: المقتبس من اللهجات العربية والقرآنية، مؤسسة شباب الجامعة، 1986م.

نايف معروف: خصائص العربية وطرائق تدريسها، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، 1998م.

اللّغة واللّهجة: دراسة في الكتاب لسيبويه (ت 180 ه)

علي بوجبهى[1]

مقدمة:

حديثنا عن اللّغة واللهجة والفرقِ بينهما، يطرحِ أمامنا كثيرا من التساؤلات، من قبيل: عن أيّ لغة نتحدّث؟ وأيُّ لهجة نقصد؟ وعلى أيِّ فروقٍ واعتبارات نعتمد في التصنيف؟ وهل المراد تحديد أوجه التشابه والاختلاف بين اللغة العربية ولهجاتِها؟ وعن أيِّ لهجةٍ من لهجات العرب سنتناول بالدارسة والبحث؟ إلى غيره من الأسئلة التي لا تنتهي!

ولهذا ستجدني لن أعرّج على المدخل النّظري لهذا الموضوع، لكونه سيأخذ مني وقتا أطول للحديث عن المقصود باللهجات العربية، وعددها، والقبائل المنسوبة إليها هذه اللهجات، ورصد مواطنها والفروق اللّغوية بينها: صوتا وصرفا ونحوا ودلالة... وإنما ستقتصر مشاركتي على دراسة مسألة: «اللغة واللهجة» كما تصورها إمام العربية سيبويه في مدونته «الكتاب». وعليه، أتساءل:

هل للهجات ذكر بارز في التقعيد النّحوي عند سيبويه؟ وما أكثر اللّهجات تمثيلا لقواعد النّحو العربي الأكثر شيوعا في «الكتاب»؟ وما الاعتبارات المعتمدة في أن هذه اللّفظة أو هذا التعبير عربيّ فقط، وآخر عربيّ كثير، وثالث عربيّ قويّ، ورابع عربي حسن، وخامس عربيّ قياسيّ، وسادس عربيّ جيّد، وسابع عربي لغة (أي لهجة)؟ وما موقف سيبويه من اللّهجات العربية التي استقى منها اللّغويون قواعدَهم؟ وهل ذكر مجمل اللّهجات العربية في كتابه؟ أو أهمل بعضا منها؟ وهل ذكر أصحاب تلك اللهجات من القبائل العربية؟ وهل كل اللهجات مستعملة في نحو العربية؟ أو بعضها مستعمل وبعضها مهمل؟ وما رأي مؤسس علم العربية فيها؟ وما مصطلحاته في الإشارة إليها؟

وأقول – وبالله التوفيق - إنّ هذه الورقةَ تهدف إلى كشف النّقاب عن بعض معاني ودِلالات لفظتي: «اللغة» و «اللهجة» كما ورد استعمالهما - تصريحا أو تلميحا - في كتاب «الكتاب» لإمام العربيّة سيبويه، منطلقا من وصف إحصائي سريع لبعض مصطلحاته، خصوصا في الجزأين الأوليين من «الكتاب»، متجاوزا - بذلك - النّظرة الضّيقة التي تقف عند تعريف المفهومين، مبرزا

1- باحث في اللسانيات: نحو وتركيب، جامعة محمد الخامس الرباط.

بعض الامتدادات التطبيقية لهما كما هي موجودة في الفصيح من لغة «الكتاب»، وصول إلى بعض الاستنتاجات أحسبها، خلاصات من شأنها أن ترصد - مستقبلا - منهجا كفيلا بوضع آليات التقعيد النّحوي للمنوعات اللسانيات العربية.

إذن طبعة هذا الموضوع اقتضت أن نوزّع المداخلة إلى محورين أساسيين: أوّلها، تحديد مفهومي اللّغة واللّهجة وثانيها: تطبيقات لغويّة مشتقة من لغة سيبويه، على أن نختم بجملة من الخلاصات والاستنتاجات العامة التي سنتوصل إليها من خلال البحث في الموضوع.

مفهوم اللّغة واللهجة.

من المعلوم أنّ «حدّ اللّغة: أصواتٌ يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم»[1] وإن كان بعض الباحثين اللّغوين المحدثين المتأخرين، يرون أن اللّغة لا تقتصر فقط على الوظيفة التعبيرية التواصلية، بقدر ما تدخل فيها وظائف أخرى يستفاد منها المعنى المراد كنظام العلامات والرموز والإشارات والإيماءات (تعابير الوجه)... إلخ. يقول فرديناند دي سوسير «اللغة تنظيم من الإشارات المفارقة»[2]

أما بالنسبة لابن خلدون (ت 808 هـ) فاللغة عنده «عبارة المتكلّم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام. فلا بد أن تصير ملكة متقرّرة في العضو الفاعل لها، وهو اللّسان، وهو في كل أمّة بحسب اصطلاحاتها»[3]

أمّا اللّهجة (أو الدّارِجة العاميّة) فَمُنَوَّعَةٌ لِسانيّة[4] تمثل فرعا من أصل، وجزءا من كلٍّ، وطريقةَ أداءٍ خاصةٍ لِمَا هو عام في لسان عشيرة لغوية معيّنة، فهي وإن كان تعريف أبي الفتح بن جني (ت 392 هـ) السّابق، ينطبق عليها لكونها وسيلة للتخاطب قصد تحقيق أغراض معينة، فهي: «مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بِيئة خاصة، يشترك في التحدث بها أفراد وعشائر بشرية معيّنة[5]».

1- ابن جني: «الخصائص»، ج. 1، ص. 33

2- ميشال زكرياء «الألسنية» ص. 228

3- ابن خلدون «المقدّمة»، ص 1056

4- مصطلح «مُنَوَّعَةٌ لِسانيّة = Linguistic variety / Variété linguistique: من المصطلحات اللّسانيّة الحديثة، أخذناه من أستاذنا المفضال، الدكتور محمد التّاقي، الذي يوظفه كثيرا كمرادف لما يسمى بـ»الدَّارِجَة أو العَاميّة»، يقول الأستاذ في محاضرة له بعنوان: «فصل المقال فيما بين الأنحاء التّقليديّة واللّسانيات من انفصال»: «... حينما نجد أن لسانا معيّنا أو منوَّعة لسانيّة في لسان معينّ، وضعتْ لنفسِها نحوًا فالغرض الأساس يكون هو ماذا؟ هو تعليمُ هذا اللّسان أو تعليم هذه المنوَّعة...».

5- إبراهيم أنيس: «في اللّهجات العربية» مكتبة الأنكلو المصرية – القاهرة، الطّبعة الثامنة، 1996، ص 16.

ولو عدنا إلى المعاجم اللغوية العربية لوجدنا صاحبَ اللّسان يحدد اللّهجة في «اللّسان» أو طرفه، أو جرس اللسان، يقول: «اللَّهْجَةُ أو اللَّهَجة: طرف اللسان، وجَرْس الكلام، والفتح أعلى، ويقال: فلانٌ فصيح اللَّهْجَةُ أو اللَّهَجة، وهي لغته التي جُبل عليها فاعتادها ونشأ عليها. واللَّهْجَةُ: اللّسانُ، وقد يحرّك، وفي الحديث: ما مِن ذي لَهْجةٍ أصدقُ مِن أبي ذرٍ»[1] بمعنى، أنها طريق ومسلك في الأداء اللغوي، فضلا عن كون اللغويين القدماء يوظفون في التعبير عن «لهجةِ» قبيلة ما لفظة: «لُغة» أو «لُغيّة» فمما رُوي عن أبي عمرو بن العلاء (ت 154 ه): «قال ابن نوفل: سمعتُ أبي يقول لأبي عمرو بن العلاء: أخبرني عمّا وضعتَ ممّا سمّيت عربيّةً، أيدخل فيه كلامُ العرب كلُّه؟ فقال: لا، فقلتُ، كيف تصنع فيما خالفتْك فيه العرب، وهم حجّة؟ فقال: أحملُ على الأكثر، وأسمي ما خالفني فيه لغات»[2] فألفوا في ذلك كتبًا منها نذكر: «كتاب اللغات» لأبي عُبيدة معمر بن المثنى (ت 209 ه) والفراء (ت 215 ه) والأصمعي (ت 216 ه).

مفهوم اللّغة واللهجة عند سيبويه

ولو عدنا إلى كتاب سيبويه لوجدنا إمام العربية في كثير من المواضيع، ينعت بعض الاستعمالات اللغوية ويطلق عليها أحكاما نوعيّة مرة، مرتبطة بالضّعف أو القوة أو الرّداءة أو القبح. وأخرى كميّة كقوله بالكثرة أو القلّة...إلخ. وربما بهذه الأحكام يضع سلما معياريّا تتفاوت فيه لغة العرب من حيث الفصاحةُ: صعودا وهبوطا.

وأول ما يستوقف الباحث المتأمّل في «الكتاب» اطراد استعمال سيبويه لحكم «هذا عربيّ جيّد»[3] أتراه يعني به اللغة الفصيحة؟ أم أنه يطلقه على لهجة من لهجات العرب؟ خصوصا إذا علمنا أنّه يقرنه مرة بحكم كميّ فيقول: «هو عربيّ جيّدٌ كثيرٌ»[4] يقول أحد الباحثين[5]: «لم يطلق سيبويه حكم (عربيّ) على الاستعمالات اللغويّة الكثيرة في لغة العرب، لأنّها كثيرة وحسب، فالكثرة عنده شيءٌ، والعربية شيءٌ آخر، يدل ذلك على قوله: «فإذا ذكرتَ مفعولينِ كلاهما غائبٌ، فقلتَ: أعطاهوها

1- ابن منظور: «لسان العرب»، ج 2، دار الفكر ودار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1410ه، ص 359.
2- السيوطي، «المزهر في علوم اللغة وأنواعها» ج1، ص 184.
3- سيبويه، الكتاب: ج. 1. ص. 34
4- المرجع نفسه، ص 34
5- جزاء المصاورة من جامعة الملك فيصل بالمملكة العربية السعوديّة

وأعطاهاه جاز، وهو عربيّ، ولا عليك بأيّهما بدأت من قبل أنّهما كلاهما غائب، وهذا أيضا ليس بالكثير في كلامهم، والأكثر في كلامهم أعطاه إيّاها»[1]

وبناءً على هذا القول فالحكم على الكلام بأنه (عربيّ) يخالف الحكم عليه بأنه (كثير). فهل «الكثرة» أمارةٌ على الفصيح من الكلام؟ أم أنّها ليست معيارا للحكم على الكلام بأنه عربي فصيح، ومن تمّت يحق لنا أن نصنفه ضمن لائحة الكلام الدّارج على ألسن المتكلمين، كما يحق لنا أن نسجل ضابطا مفاده: الكلام في مدونة سيبويه فيها نصيب عربي ليس بالكثير (وهو المقابل للغة) ونصيب عربي كثير، هو المستعمل المنتشر والمطّرد في كلام العرب، لا الجائز عند النّحاة. (وهو المقابل للظاهرة اللهجيّة عند العرب).

كما نجده مرة أخرى يُقرِنُ حكم (عربيّ) بالجودة أو القوة، يقول سيبويه: «زعم أنّ: كم درهما لك أقوى من: كم لك درهما، وإن كانت عربيّة جيدةٌ»[2] وتأسيسا على هذا القول نفهم أنّ نعته التعبير بقوله: «عربيّ» أقلّ درجة في سلم الفصاحة من قوله «قويّ»، وعليه فكل تعبير قوي عربي وليس كل تعبير عربي قويّا، ومما يعضد هذا القول قول سيبويه في ظاهرة إدغام المثلين في موضع آخر من مدوّنته قوله: «ومما يدغم إذا كان الحرفان من مخرج واحد، وإذا تقارب المخرجان قولهم: يَطَّوَّعون في يتطوَّعون، ويذَّكَّرون في يتذكَّرون، ويسَّمَّعون في يتَسمَّعون، والإدغام أقوى، إذا كان يكون في الانفصال. والبيان فيهما عربي حسن لأنّهما متحركان»[3]

وفي هذا الصدد نرى سيبويه ينتصر لمنطق اللغويين على حساب منطق النحويين، يقول الدكتور شكري عيّاد: «مِنَ الطريفِ أنَّ سيبويه يشير إلى «قياس النّحويين» بهذا الاسم وكأنّه يُخرج نفسه من زمرتهم حين يخالفون أصحاب اللغة، بل نجده يحتج لأصحاب اللغة (طبعا الفصحى الصافيّة)، مُبيّنا أنّ قياسَهم – وإن لم يصرّحوا به - أسلمُ من قياس النّحويين، وذلك في «باب إضمار المفعولين اللذين تعدى إليهما فعل الفاعل» فيقول: إنَّ النّحويين أجازوا مثل «أعطاكني» أو»أعطاهوني»... ثمّ يقول: إنَّه قبيح لا تكلم به العرب، ولكنّ النَّحويين قاسوه» ويضيف «و إنّما قبُح عند العرب كراهيّة

1- جزاء المصاورة: «المستوى الثاني من مستويات الاستعمال اللغوي عند سيبويه»، مقال منشور ب: دراسات، العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، المجلّد 42، العدد 1، 2015.

2- سيبويه، الكتاب: ج.2، ص. 158

3- سيبويه، «الكتاب»، ج.4، ص. 474 -475

أن يبدأ المتكلّم في هذا الموضع بالأبعد قبل الأقرب»[1]، وهذا يجعلنا نتساءل، ما الفرق بين ما تتكلم به العرب؟ وما تستحسنوه؟ وما تستقبحه؟

كما أن سيبويه يستعمل ألفاظا وتعابير من قبيل: «سمعت بعض العرب»[2] و«قال بعض العرب»[3] و«سمعنا من العرب»[4] و«أهل الجَفاَء من العرب»[5]. ومثل هذا في مدونته كثير. فهل كان يقصد بذلك من يتكلّم لهجة محددة ومعيّنة؟ سيما وأنه غالبا ما يكرر قوله: (ومن العرب)، كأنّ كلام العرب أصناف وأنماط فيه: عربي، وعربي كثير، وعربي أكثر، وعربي قوي، وعربي أقوى، وعربي جيد، وعربي أجود، وعربي حسن، وعربي أحسن، وعربي قياسي، وعربي أقيس.

خاتمة:

من خلال ما سبق يمكن أن نخلص إلى خلاصات عجلى نستنتج منها الفوارق المعتبرة الموجودة بين اللغة واللّهجة عموما وعند إمام النّحو سيبويه خاصة:

اللغة أصل يمثل نظاما، عاما ونسقا كليّا لكل الألسن البشريّة، في مقابل اللهجة (الدّارِجة العامّية) التي هي فرع خاص بطريقة الأداء اللغوي عند أصحاب عشيرة لغويّة معيّنة.

اللغة معيار من القواعد المستعملة في الخطابات الرّسمية المكتوبة والمنطوقة، في مقابل اللّسان الدارج الموظّف في التداول الشّعبي المنطوق – غالبا -بين عموم المتكلّمين. الخ

تشير اللغة إلى معاني الوحدة والضبط والصرامة، بخلاف اللهجة التي ترمز إلى التعدد والاختلاف والخروج أو الانحراف عن النظام اللغوي في كثير من السّياقات وعلى مستويات لغوية عدة: صوتا وصرفا وتركيبا ودلالة.

أما اللغة واللّهجة في مدونة سيبويه -حسب فهمنا – فيصعب التمييز فيها بين اللّغة المعيار واللّغية (أي اللهجة) أو المنوعة اللسانيّة الخاصة بقبيلة ما أو قبائل معيّنة، إنما يسهل فهم أمرهما

1- من مقال للدكتور عبد الجليل هنّوش بعنوان: «منهجيَّة سيبويه في البحث اللّساني» في عدد خاص بأعمال ندوة: «اللغة العربية والبحث اللساني / 20 – 19 فبراير 1993، منشور بمجلة كلية اللغة العربية بمراكش، العدد 6، سنة 1416 هـ / 1995م، ص. 79.

2- سيبويه، «الكتاب»، ج1، ص 47

3- المرجع نفسه، ص 51

4- المرجع نفسه، ص 53

5- المرجع نفسه، ص 56

متى أدركنا سلم الفصاحة الذي وضع معالمه سيبويه في مدونته. حين قسم الكلام باعتبارات كمّية وأخرى كيفيّة.

كلام العرب -حسب التحليل السّيبويهي -أصناف وأنماط وألوان، يمكن فهمه وفق هذه الثنائيات المعيارية: الكثرة والقوة والجودة والحسن والقياس. بمعنى فيه ما هو عربيّ وعربي كثير وعربي أكثر باعتبار الكثرة. وعربي قوي وعربي أقوى باعتبار القوة، وباعتبار الجودة والحسن فيه ما هو عربي جيّد وعربي أجود وعربي حسن وعربي أحسن كما أنّ فيه ما هو عربي قياسي وعربي أقيس. وربما فيه المحال وحتى القبيح.

وختاما آمل أن يكتب لهذه المشاركة القبول، سيما وأنها تطمح أن تعمق البحث في مسائل اللغة عند إمام النّحو سيبويه، من خلال الكشف عن آليات المنهج العلمي المعتمد في «الكتاب» لسيبويه، مع رصد كيفية جمع مادته اللغوية والمعرفية. فضلا عن البحث عن الدواعي اللغوية والثقافية والاجتماعية التي حتمت على سيبويه التفكير في وضع نحو خاص للعربية، والدواعي التي كانت وراء إخفائه لأنحاء أخرى، سيكون إثارتها وإحياؤُها أكثر خدمة للغة العرب، وتيسيرا لاستعمالها بدلا من حصرها على نطاق محدد خوفا من سلطة القاعدة.

البيبليوغرافيا

ابن منظور: «لسان العرب» دار الفكر ودار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1410هـ.

جزاء المصاورة: «المستوى الثاني من مستويات الاستعمال اللغوي عند سيبويه»، مقال منشور ب: دراسات، العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، المجلّد 42، العدد 1، 2015.

الخصائص، لابن جني، تحقيق: علي النّجار، مطبعة دار الكتب، 1952

سيبويه، الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، عالم الكتب، الطبعة الثالثة: 1983 م

السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ضبط وتحقيق: فؤاد علي منصور، مطبعة دار الكتب العلميّة، الطبعة الثالثة.

مقال للدكتور عبد الجليل هنّوش بعنوان: «منهجيَّة سيبويه في البحث اللساني» في عدد خاص بأعمال ندوة: «اللغة العربية والبحث اللساني / 20–19 فبراير 1993، منشور بمجلة كلية اللغة العربية بمراكش، العدد 6، سنة 1416 هـ / 1995م، ص. 79.

المقدّمة، عبد الرحمن بن خلدون، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، 1993 .

التمايز بين اللغة واللهجة واقع تفرضه الأدلة العلمية

محمد الزعيم[1]

تقديم:

الجدل حول الفرق بين اللغة واللهجة والعلاقة بينهما والأفضلية بينهما طويل جدا، لم يحسم بعد، بل لعل الحسم فيه ربما يكون أمرا مستبعدا؛ ببساطة لأنه يتناول قضية شائكة لا يمكن فصلها عن الإنسان وهويته وثقافته ووجوده وكينونته، فكل جماعة لسانية تنظر إلى لغتها أو لهجتها نظرة الإجلال والإكبار وترى لسانها أجدر الألسن بالتقديم والحُظوة، وهذه النظرة التي تربط اللغة بالهوية والثقافة نقلت النقاش من الحقل العلمي إلى الحقل الإيديولوجي والسياسي فاستعصى الحل على العلماء وعز الدواء. ولا نرى لهذه القضية حلا إلا إذا تمت العودة إلى العلم الصحيح المتجرد من الأهواء والخلفيات والأحكام المسبقة. ومن هذا المنطلق العلمي سيعالج هذا البحث إشكالا مهما هو: الفرق بين اللغة واللهجة، وأيهما أصل وأيهما فرع؟ والإجابة عن هذا الإشكال ستقودنا إلى إشكالية أخرى متعلقة بها وهي إشكالية تصنيف الأمازيغية، وفي أي دائرة يمكن وضعها في دائرة اللغات أم في دائرة اللهجات؟

وقد فرضت علينا طبيعة الإشكالية منهجا تحليليا منطقيا حجاجيا، جريء في الطرح أحيانا، يتعامل مع الظواهر والنصوص بالتحليل والمقارنة، ليستخلص منها النتائج والخلاصات.

اللغة واللهجة: الأصل والفرع

قبل إعطاء الرأي الذي نراه أقرب إلى الصواب، سنبدأ نقاشنا لهذا الموضوع من نقطة نعتبرها تمهيدا جيدا له، إنها مسألة انتشار اللغات وما يترتب عن هذا الانتشار من نتائج.

إن لانتشار اللغات أسبابا عديدة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

الصراع اللغوي: يحدث ذلك حين تدخل لغة ما في صراع مع لغة أو لغات أخرى، فتفرض اللغة الغالبة هيمنتها على اللغات الأخرى. وهذا الصراع اللغوي هو بالتأكيد مظهر لصراع آخر يسبقه وهو

1- باحث في الدرس اللغوي والخطاب الشرعي، جامعة السلطان مولاي سليمان/ بني ملال

الصراع العسكري أو السياسي، فالمنتصر عسكريا أو سياسيا يفرض هيمنته اللغوية على المهزوم، وهذا واقع مُشاهَد لا يحتاج إلى دليل.

الهجرة: يحدث عندما ينتشر أفراد شعب معين بسبب الهجرة أو الاستعمار في بلاد بعيدة عن أوطانهم، فيتكاثرون بهذه البلاد مما يؤدي إلى توسع لغتهم وانتشارها.[1]

وعندما تنتشر لغة ما وتتسع يصبح من العسير جدا . إن لم نقل من المستحيل . أن تحتفظ بشكلها الأول سواء على المستوى الصوتي أو التركيبي أو غير ذلك، ومن هنا تبدأ اللغة في الانقسام إلى لهجات، ثم تسلك كل لهجة طريقا مختلفا تماما عن الطريق الذي سلكته اللهجات الأخرى، ومع تطاول الزمن تتسع الشُّقة ما بين تلك اللهجات حتى تصبح كل منها لغة متميزة ومستقلة. والجدول أسفله يقرب الأفكار السابقة بشكل أكثر وضوحا:

		اللغة		
لهجة5	لهجة4	لهجة3	لهجة 2	لهجة1
لغة5	لغة4	لغة3	لغة2	لغة1

مثال واقعي:[2]

		اللاتيني		
لهجة5	لهجة4	لهجة3	لهجة 2	لهجة1
لغة رومانيا	البرتغالية	الإيطالية	الإسبانية	الفرنسية

فالراجح علميا أن تكون اللغة هي الأسبق وهي الأصل، وأن تكون هذه الكثرة المُهْوِلة للهجات مَرَدُّها إلى أصل واحد مشترك هو اللغة الأم؛ لغة الإنسان الأول التي انفصلت عنها كل اللهجات وكل اللغات، تماما مثل الإنسان الذي انحدر من أصل واحد وبلغ من الكثرة المبلغ الذي نعرفه جميعا.

أما اللهجة فهي فرع واحد من بين فروع كثيرة تتفرع إليها اللغة نتيجة اتساعها في الرقعة الجغرافية، أو هي إحدى العاميات التي تخرج من اللَّحن الذي يصيب اللغة،[3] وحين تنضج اللهجة وتتطور تتحول بالتدريج إلى لغة، أي أن اللغة هي الغاية التي تسعى إليها اللهجة في مسار تطورها الطويل، فاللهجة

1- علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، نهضة مصر للطباعة والنشر، ط9، 2004، ص171

2- علم اللغة، ص 173(بتصرف)

3- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ الأدب العربي، مجلد1، ص198، تحدث الرافعي عن هذه المسألة تحديدا في معرض كلامه عن اللغة العربية الفصحى، ونحن لا نرى ما يمنع تعميم هذه الخاصية بالنسبة للغات كافة.

تسعى لتصبح لغة، ومعلوم أن التطور لا يكون إلا في اتجاه الأرقى والأكمل؛ لذلك تجد آداب الأقوام وتراثها وعلومها وفنونها تُدوَّن باللغة وليس باللهجة.

وأما اللغة فالواقع الجغرافي والاستعمالي هو الذي يفرض عليها الانقسام إلى لهجات، وهذا الانقسام يُعتبر بدوره تطورا نحو الأفضل والأكمل، ليس باعتبار تحول تلك اللغة إلى لهجات كثيرة، ولكن باعتبار تطور تلك اللهجات نفسها وتحولها فيما بعد إلى لغات، ما يجعلنا نقول بأن تطور اللغة يكون بتحولها إلى لغات أخرى كثيرة تكون اللغة الأولى هي الأصل المشترك لها جميعا.

وقد يحدث أن تندثر اللغة الأم وتفنى في خضم ذلك الانقسام والتفتت، وقد يُكتب لها الصمود كما حدث مع اللغة العربية، التي تفرعت إلى لهجات كثيرة، لكنها مع ذلك بقيت محافظة على كينونتها فلم تندثر كما حدث مع اللاتينية مثلا.

وكأني باللغة كائن حي يجري عليه ما يجري على الأحياء؛ تولد وتنمو وتنضج وتتكاثر ثم تموت.

وقد بحثنا في بعض المعاجم عن معنى اللغة واللهجة والفرق بينهما فظفرنا ببعض الإشارات، فقد عرف ابن فارس اللغة بقوله: لغي بالأمر، إذا لهج به. ويقال إن اشتقاق اللغة منه، أي يلهج صاحبها بها»[1]

أما ابن منظور فقد عرف اللهجة بقوله: « اللهجة اللسان..والهاجَ اللبنُ الهيجَاجا: خَثُرَ حتى يختلطَ بعضه ببعض ولم تتم خثورته. وكذلكَ كلُّ مختلط. والهاجتْ عينُه: اختلط بها النعاس. والفصيل بلهج أمه إذا تناول ضَرعها يمتصه. ولهج الفصيل بأمه يلهج إذا اعتاد رضاعها، فهو فصيل لاهج. ولهج بالأمر لَهَجا، ولَهْوَجَ، وأَلْهَجَ كلاهما: أُولِعَ به واعتاده. ويقال فلان مُلهَج بهذا الأمر أي مولع به. واللَّهْج بالشيء: الولوع به. واللهجة واللَّهَجة. ويقال: فلان فصيح اللَّهْجَة واللَّهَجَة، وهي لغته التي جبل عليها فاعتادها ونشأ عليها.[2]

الملاحظ من خلال كلام ابن فارس أن الفعل (لهج) مُتضمن في الفعل(لغا)، وبالتالي يمكن القول إن اللهجة مُتَضَمَّنَة في اللغة ومنصهرة فيها، أو هي موجودة في حالة سكون تنتظر الفرصة المناسبة لتخرج من تحت سيطرتها وتنطلق لتكون لغة مستقلة. وهذا يثبت أن اللغة أصل واللهجة فرع.

1- ابن فارس، مقاييس اللغة، (لغو)، ج5/ 255.

2- محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين بن منظور الأنصاري الإفريقي، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، عدد الأجزاء 15، ج2، ص359

أما كلام ابن منظور فيمكن أن نستخلص منه أن الفعل (لَهَجَ) يحمل معانٍ متعددة تذكر منها: المداومة على الشيء والمثابرة عليه، واختلاط الشيء بغيره وعدم صفائه ونقائه، والتعوُّدُ على فعل الشيء والوُلوعُ به، واللهجة حسب كلام ابن منظور أيضا هي اللغة وهي اللسان.

إن المقصود بلفظة اللسان التي جاءت في بداية كلام ابن منظور هو اللغة، فالعرب لم يكونوا يعبرون عما نسميه نحن اليوم» باللغة» إلا ب» اللسان»، وقد يُستأنس في هذا الرأي بما جاء في القرآن الكريم من استعمال كلمة» اللسان» وحدها في معنى اللغة في نحو ثماني مرات[1] فاللغة واللسان معناهما واحد عند العرب القدماء.

وفي الموضع ذاته من كلام ابن منظور نجده يقول بأن «اللهجةُ اللسان»؛ أي أن اللهجة هي اللسان أو هي اللغة، فلا فرق إذن بين اللغة واللهجة، وهذا دليل على أن العرب لم تكن تفرق بين اللغة واللهجة، بل أكثر من هذا نجد أن العرب كانوا يعبرون عن « اللهجة» بلفظة « اللحن» كذلك.[2]

وفي غياب معنى آخر للفظة اللهجة غير اللغة واللحن، سنلتقط من المعاني الأخرى التي قدمها ابن منظور- والتي بيناها سابقا - للفعل (لهج) معنى الاختلاط وسنبني عليه تعريفا مناسبا للهجة. إن ما يفهم من معنى الاختلاط الذي قدمه ابن منظور للفعل (لهج)، هو أن اللغة متى كانت غير خالصةِ الألفاظ؛ أي شابَ معجمَها الاختلاطُ والتداخلُ بين ألفاظها الأصلية والألفاظ الأجنبية الدخيلة، ومتى أصابها اللحن، تحولت إلى لهجة. وهذا ما يفهم أيضا مما ذُكِر سابقا حول تفرع اللغة. إذا ما كتب لها التوسع والانتشار - إلى لهجات، حيث يُصيبها اللَّحن من جهة، وتتداخل ألفاظها مع ألفاظ المناطق التي وصلتها من جهة أخرى. كل هذا يجعنا نقول بأن اللهجة هي لغة أصابها اللحن فرع واللغة أصل.

وحتى التعريف الذي يُقَدَّم للهجة في الاصطلاح العلمي الحديث يؤكد علاقة التَّضَمُّن بين اللهجة واللغة والتي بيناها فيما سبق، أو بتعبير أدق علاقة العام بالخاص؛ فـ « اللهجة هي مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة. وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات، لكل منها خصائصها، لكنها تشترك جميعا في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تبسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض، وفهم ما قد يدور بينهم من حديث، فهما يتوقف على قدر تلك الرابطة التي تربط بين تلك اللهجات. وتلك البيئة

1- إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو مصرية، ط2، 1952، ص16/15

2- في اللهجات العربية، ص15

الشاملة التي تتألف من عدة لهجات، هي التي اصطلح على تسميتها باللغة.»[1] فاللغة في رحلة توسعها تتأثر بخصائص البيئة التي تنتقل إليها، وبخصائص لغات أهل تلك المناطق، فتبدأ في الانقسام والتفتت إلى لهجات مختلفة، لكنها رغم اختلافها تجمعها علاقات داخلية تشدها إلى اللغة الأم، وهذه العلاقات الداخلية هي التي تضمن التواصل السليم بين الناطقين بتلك اللهجات على اختلافها، يشبه هذا الأمر الفرق الذي تحدث عنه « دوسوسير» بين اللغة والكلام، فاللغة هي ذخيرة من الانطباعات مخزونة في دماغ كل فرد من أفراد مجمع معين: ويكاد ذلك يشبه المعجم الذي توزع منه نسخ على كل فرد في المجتمع، أما الكلام فهو التحقق الفردي للغة على أرض الواقع، فهو ليس وسيلة جماعية بل هو مظاهر فردية للغة،[2] وهذا التحقق الفردي لا بد أن يترك أثاره على اللغة؛ لذلك فـ« الصفات المميزة للهجة تكاد تكون منحصرة في الأصوات وطبيعتها، وكيفية صدورها.»[3] والأصوات وطبيعتها وكيفية صدورها، تدخل في دائرة اشتغال المتكلم؛ فالتغييرات الصوتية التي تحدث في الأصوات في أثناء الكلام لها أثر عميق في مستقبل اللغة، كما اعترف بذلك دوسوسير.[4] بعبارة أخرى المتكلم هو العامل الأساس في انتقال اللغة إلى لهجة.

إذا ثبت أن اللغة هي الأصل وأن اللهجة ما هي إلا بنت واحدة من بين بنات كثيرات لها، وهي في ذات الوقت مشروع مستقبلي للغة أخرى مستقلة، وإذا ثبت أيضا أن العلاقة بين اللغة واللهجة هي كالعلاقة بين العام والخاص، ثَبَتَ أن التفاضل موجود بالفعل وأن اللغة أفضل من اللهجة، والتفاضل سُنَّة راسخة في الكون، فالأشياء ليست متساوية في القيمة، وهذا التفاوت في القيمة تابع للوظيفة التي وُجدت من أجلها الأشياء، فلا يُصَدِّق عاقل أن الذهب مُساوٍ للتراب مثلا، أو أن الحرير معادلٌ للصوف، أو ألاّ أفضلية للإنسان على الحيوان....، لكن هذا التفاوت والتفاضل لا يُلغي المفضول، ولا يجعل الفاضل مَلِكا مُتَوَّجا، بل إن علاقة التفاضل تلك مبنية على أدوار معينة ينبغي أن يؤديها الفاضل والمفضول سواء بسواء، وأكثر من هذا يمكن القول: إن مسؤولية الفاضل أجلُّ وأكبر من مسؤولية المفضول، وفي حالة اللغة واللهجة، فإن وظيفة اللهجة هي بناء تواصل سليم بين أفراد جماعة لسانية معينة لا غير، أما وظيفة اللغة فأجَلُّ وأعظم ليس التواصل سوى جزء يسير

1- إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ص15
2- فردينان دي سوسور، علم اللغة العام، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، آفاق عربية، 1985، ص38
3- في اللهجات العربية، ص16
4- علم اللغة العام، ص 37

منها، أما جزؤها الأعظم فهو حِفظ تراث الأمة وصونُه من الضياع، ونقلُه مكتوبا سليما من جيل إلى جيل. وتلك مهمة جليلة ومسؤولية جسيمة تتحملها اللغة.

الأمازيغية: لغة أم لهجة؟

إن التمايز بين اللغة واللهجة حاصل بالفعل، وهو تمايز يفرض نفسه، ويفرضه الواقع، لكن هذا التمايز لا يعطي الحق لأحد ليوظفه توظيفا إيديولوجيا يسعى من خلاله إلى بث الفرقة والخصومة والنزاع بين أبناء المجتمع الواحد، ولا يعني البتة الاحتقار والتنقيص، ذلك أن لكلٍّ وظيفته ولكلٍّ مهمته التي وُجد من أجلها.لذلك سنبين موقفنا الواضح من الأمازيغية قبل أن نحاول علميا إثبات ما إذا كانت لغة أم لهجة، دون أن تكون النتيجة التي سنتوصل إليها في النهاية مَدعاة إلى التنقيص منها أو من أي لسان غيرها. إن موقفنا من الأمازيغية هو نفسه موقفنا من أهلها،؛ هم الإخوة والأصهار والأصدقاء والزملاء، نحبهم ونحترمهم ونرفض ونَرُد كل ما من شأنه التنقيص منهم أو النيل من هويتهم وثقافتهم، ذلك موقفنا من الأمازيغية والأمازيغ دون مجاملة ودون مُداهنة، وإذا كانت النتيجة التي توصلنا إليها سابقا(أفضلية اللغة على اللهجة) تتعارض مع المبدأ اللساني المعروف القائل بعدم المفاضلة بين اللغات والألسن، فإننا نقول بأن هذا المبدأ ليس مُسلَّمة مطلقة علينا الإيمان بها دون مناقشة، فالمفاضلة قائمة شئنا أم أَبَيْنَا، والعجيب أننا نريد إخفاء هذه القضية الثابتة بغطاء يدَّعي العِلْمية والموضوعية وهو ذاته يخرق مبدأ الموضوعية والعلمية، فالمفاضلة موجودة وقائمة، ولكن الذي ينبغي أن يوجد إلى جانبها هو مبدأ الاحترام، فالألسن وعاء الثقافات واحتقار الألسن هو احتقار لتلك الثقافات.

نعود الآن لنبحث في إشكالية تصنيف الأمازيغية، ونطرح السؤال بشكل واضح: في أي خانة يمكن وضع الأمازيغية أفي خانة اللغات أم في خانة اللهجات؟

الجواب يستدعي منا العودة إلى الكلام السابق الذي بدأنا به هذه الورقة، والذي بينا فيه أن اللغة بفعل اتساعها الجغرافي تتحول إلى لهجات كثيرة وهذه الأخيرة تتطور مع مرور الزمن إلى لغات، إذا فالمعيار الفاصل بين اللغة واللهجة هو قابلية اللغة للتفتت إلى لهجات وعدم قابلية اللهجة لذلك، لنعرض هذه القاعدة على الأمازيغية ولْنَرَ هل للأمازيغية بنات صُغريات تفرَّعن عنها بحيث تكون هي بمثابة الأم لهن؟ واقعيا نظن أنه بالفعل توجد للأمازيغية بنات(لهجات) تَفَرَّعْنَ عنها، لكننا لن نتسرع ونقول بأن الأمازيغية لغة وليست لهجة، لأن ثمة معيار آخر للتصنيف وهو معيار تدوين العلوم

والآداب والفنون باللغة وليس باللهجة، هنا سنجد أنفسنا أمام إشكالية حقيقية، ذلك أنه لم يثبت تاريخيا - حسب علمنا المتواضع - أن ثمة علوما وآدابا وفنونا دُوِّنَت بالأمازيغية، والتدوين يحتاج إلى خط وَرَسْمٍ وحتى هذا تصطدم فيه الأمازيغية بإشكال لم يتمَّ الحسم فيه بعد؛ ونعني بذلك إشكال «تيفيناغ»، نحن أمام نتيجتين تُقَوض كل منهما الأخرى، فالأولى تَجُرُّ الأمازيغية إلى دائرة اللغات، بينما الثانية تحاول دفعها بعيدا عن تلك الدائرة. هكذا يبقى الإشكال مطروحا، لكن في غياب أبحاث أنتروبولوجية جادة تحاول البحث في السؤال الثاني (سؤال تدوين الآداب والعلوم والفنون...) نحكم مبدئيا بانتماء الأمازيغية إلى دائرة اللغات، لكنها مع ذلك تبقى لغة محدودة في حيز جغرافي محدود، مثلها مثل لغة الإينو التي يتكلم بها سكان جزر هوكايدو وسخالين، واللغة الليتونية التي يتكلم بها الباسكيون في فرنسا وإسبانيا. أو في أحسن الأحوال مثل اللغة الفارسية والحبشية اللتان انتشرتا، لكن بصورة متوسطة.[1] ويبقى على الباحثين محاولة إثبات تدوين العلوم والآداب والفنون الأمازيغية باللغة الأمازيغية لكي يَنْحَسِم النقاش تماما.

على سبيل الختم:

كانت تلك وجهة نظرنا المتواضعة حول الموضوع، ونؤكد على أنها تحتمل الخطأ مثلما تحتمل الصواب، وحسبنا أن نفوز بأحد الحسنيين، فإما أن نُصيب الأَجْرَين؛ أجر الاجتهاد وأجر إصابة الصواب، وإما أن نصيب أجر الاجتهاد، ويمكن تلخيص النتائج التي قادنا إليها هذا التحليل السريع لبعض المعطيات اللسانية المتعلقة باللغة واللهجة فيما يلي:

التمايز بين اللغة واللهجة موجود لكنه ليس مَدعاة للتنقيص من شأن اللهجة، إذ لكل منهما وظيفته الخاصة؛

وظيفة اللهجة تواصلية أما وظيفة اللغة فهي حفظ تراث الأمة وصونه من الضياع؛

اللغة إذا توفرت لها أسباب الانتشار والتوسع الجغرافي تتفرع إلى لهجات دون ان تفقد بالضرورة أسباب وجودها؛

المتكلم هو العامل الأساس في انتقال اللغة إلى لهجة.

اللهجة هي بنت صغرى للغة وهي مشروع للغة مستقبلية؛

1- علم اللغة، ص169

الأمازيغية لغة. بنوع من التجوز. وهي شبيهة باللغات المحصورة في حيز جغرافي ضيق، أو باللغات المنتشرة انتشارا محدودا؛ كلغة الإينو واللغة الليتونية، واللغة الفارسية والحبشية.

المبدأ الضامن للتعايش اللغوي هو مبدأ الاحترام لأن احترام لغة الآخر هو احترام لثقافته والعكس أيضا صحيح؛

يبقى التدليل على هذا الادعاء (كون الأمازيغية لغة) محتاجا بشدة إلى تعمق الباحثين والدارسين لإثباته.

البيبليوغرافيا

ابن فارس (المتوفى:395هـ)، مقاييس اللغة، (لغو)، تح: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1399هـ، 1979م.

إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ط2، 1952.

تاريخ الادب العربي، مصطفى صادق الرافعي، (ت=المتوفى: 1356هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي.

محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين بن منظور الأنصاري الإفريقي، دار صادر، بيروت.

علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، نهضة مصر للطباعة والنشر، ط9، 2004.

فردينان دي سوسور، علم اللغة العام، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، آفاق عربية، 1985.

الفُصحى واللهجات: ازدواجية أم مستويات لغوية

محمد احدوش[1]

تقديم

تثير علاقة اللغة باللهجة بشكل عام عدة إشكالات يتصل بعضها بما هو لساني محض، وبعضها الآخر له صلة بجوانب مختلفة، منها ما هو سياسي، ومنها ما هو ديني، ومنها ما هو قومي أو عرقي. وفيما يخص علاقة اللغة العربية باللهجات العامية فهي تثير أيضا مثل تلك الإشكالات، إلى حد التناقض المفضي أحيانا إلى الصراع، خصوصا أن فريقا من المهتمين بهذا الموضوع يذهب إلى اعتبار اللهجات العامية ليست سوى تشويها للعربية الفصحى وانحرافا بها عن قوانينها وجمالياتها، بل وتعديا على وظائفها المثلى، حيث يرون أن اللهجات تزاحم الفصحى في كل مكان وتحرمها من الانتشار مما يؤدي إلى خلق ازدواجية لغوية في مجتمعاتنا الناطقة بالعربية. غير أن فريقا من اللسانيين يرى أن اللهجات ما هي إلا مستوى من مستويات اللغة، باعتبار الفصحى تمثل المعيار الذي تتجسد فيه بشكل دقيق قوانين اللسان، أما اللهجات فهي تتفاضل فيما بينها من حيث درجة القرب أو البعد من الفصحى المعيار.

يروم هذا المقال المساهمة في تقديم بعض الملاحظات حول إشكالية علاقة الفصحى باللهجات هل هي ازدواجية لغوية أم مستويات لغوية؟ وإلى أي مدى يمكن اعتبار اللهجات العامية تجسيدا عالي المرونة للغة الفصحى المعيار؟

نتطرق في المبحث الأول للتعريف اللغوي والاصطلاحي لمفهومي اللغة واللهجة، وبيان الفرق بينهما، أما المبحث الثاني فنخصصه للاستدلال على كون العلاقة بين الفصحى واللهجات علاقة أصل بفرع، وليست علاقة ازدواجية.

المبحث الأول: تعريف اللغة واللهجة والفرق بينهما

تعريف اللغة واللهجة

من أجل مقاربة موضوع علاقة اللغة باللهجة، ينبغي أولا التمييز بين المصطلحين، فننطلق بداية من التحديد اللغوي ثم الاصطلاحي لكليهما.

1- مختبر اللغة العربية وتحليل الخطاب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة السلطان مولاي سليمان.

أ -تعريف اللغة:

أصلها لُغوة مِن لغوتُ مثل كُرة مِن كروتُ[1]وحُذفت الواو تخفيفا. وقيل إنّ لغوتُ بمعنى تكلمتُ «ومصدره اللغو وهو الطرح. فالكلام لكثرة الحاجة إليه يُرمى به»[2]. واللغو هو اللهج بالكلام كما قال ابن فارس في معجمه المقاييس «لغي بالأمر، إذا لهج به. ويقال إن اشتقاق اللغة منه، أي يلهج صاحبها بها»[3].

أما تحديد اللغة من الناحية الاصطلاحية، فلا يبتعد عن المعنى اللغوي الذي هو الكلام، وما يزال تعريف ابن جني هو المعتمَد في هذا الباب بحيث يعتبر اللغة أصواتا يعبر بها كل قوم عن أغراضهم[4]. وقيل أيضا في تعريفها «الكلام المصطلَح عليه بين كل قبيل»[5]. فارتبطت اللغة من الناحية الاصطلاحية بالتواصل الاجتماعي حيث يتواضع كل تجمع بشري على كلام يحققون به أغراضهم المختلفة. وينظر اللساني السويسري فيرديناند دو سوسير (1913م) إلى اللغة نظرة أشمل من مجرد كونها أصواتا، بل تشمل «كل ما يمكن أن يدخل في نطاق النشاط اللغوي؛ من رمز صوتي، أو كتابي، أو إشارة؛ أي أن اللغة تعني الكيان العام الذي يضم النشاط اللغوي الإنساني في صورة ثقافية؛ منطوقة، أو مكتوبة، معاصرة أو متوارثة»[6].

انطلاقا من هذا التحديد اللغوي والاصطلاحي الموجز للفظة (اللغة) يمكن استخلاص ما يلي:

اللغة حاجة إنسانية طبيعية للتواصل والعيش

اللغة تشمل المنطوق والمكتوب والمرموز

كل كلام تستعمله أو تلهج به (كما عند ابن فارس) جماعة بشرية يعتبر لغة.

ب- تعريف اللهجة:

يشير الجذر اللغوي (ل هـ ج) في المعاجم العربية إلى معنيين[7]:

1- ابن جني، أبو الفتح عثمان. الخصائص. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ط4. 1/34
2- المناوي، عبد الرؤوف زين العابدين. التوقيف على مهمات التعاريف. ت عبد الخالق ثروت. عالم الكتب، القاهرة. ط1، 1990م. ص290
3- ابن فارس، أحمد بن زكرياء. معجم مقاييس اللغة. ت عبد السلام هارون، دار الفكر.1979م. مادة (لغو)
4- ابن جني، الخصائص. 1/34
5- المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف. ص290
6- شاهين، محمد توفيق. علم اللغة العام. مكتبة وهبة. ط1. ص 16
7- ابن فارس، مقاييس اللغة. مادة لهج

الأول: المثابرة على الشيء وملازمته.

الثاني: اختلاط في الأمر.

ويندرج ضمن المعنى الأول كلام الإنسان الذي يثابر عليه ويداومه. فاللهجة: اللسان، بما ينطق به من الكلام، وسميت لهجة لأن كُلاً يلهج بلغته وكلامه[1]، وإلى هذا المعنى أيضا يشير ابن منظور في معجمه، فلهجة الإنسان «هِيَ لُغَتُهُ الَّتِي جُبِلَ عَلَيْهَا فاعتادَها ونشأَ عَلَيْهَا»[2].

وتبقى إشارة ابن فارس إلى الأصل الثاني لمادة (لهج) مهمة في تقريب مفهوم اللهجة، فيقال «لهوجت عليه أمره، إذا خلطته. وأصله من اللبن الملهاج، وهو الخاثر الذي يكاد يروب... ومن الباب: لهوجت اللحم، إذا لم تنضجه شيئا، فكأنه مختلط بين الني والنضيج»[3]، فيبقى معنى «الخلط» و«الاختلاط» من مميزات مفهوم اللهجة في معاجم اللغة.

أما اللهجة من حيث **الاصطلاح** فيُقصد بها عند عدد من المهتمين والباحثين ذلك «اللسان الذي يستعمله عامة الناس مشافهة في حياتهم اليومية لقضاء حاجاتهم والتفاهم فيما بينهم»[4]، وهي في بعض التعريفات عبارة عن «مجموعة من الصفات اللغوية التي تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة»[5]. ويرى باحث آخر أن «اللهجة طريقة في الاستعمال اللغوي توجد في بيئة خاصة من بيئات اللغة الواحدة، وهي العادات الكلامية لمجموعة قليلة من مجموعة أكبر من الناس تتكلم لغة واحدة»[6].

ونستشف من التعريف اللغوي والاصطلاحي للفظ (اللهجة) ما يلي:

اللهجة هي اللغة الأم التي ينشأ عليها الإنسان.

اللهجة قرينة الاستعمال اليومي بما يحيل عليه معنى المثابرة على الشيء الوارد في المعاجم.

اللهجة خليط من لغات متعددة، وذلك بما يحيل عليه معنى «الاختلاط» عند ابن فارس.

1- المصدر السابق
2- ابن منظور جمال الدين، لسان العرب. دار صادر – بيروت، ط3. 1414 هـ. مادة لهج
3- المصدر السابق
4- نايف معروف، خصائص اللغة العربية وطرائق تدريسها. دار النفائس، 2007. ص55
5- محيسن محمد سالم، المقتبس من اللهجات العربية والقرآنية. مؤسسة شباب الجامعة. 1986، ص7
6- منير بن رحال، مقال اللغة واللهجة، منشور على جريدة هسبريس الالكترونية بتاريخ: 7 أبريل 2019. الرابط: https://www.hespress.com/writers/427800.html

اللهجة طريقة خاصة في الاستعمال اللغوي للغة الواحدة في بيئة معينة.

ليس هناك تمييز واضح بين اللغة واللهجة في المعاجم العربية.

الفرق بين اللغة واللهجة:

لاحظنا سابقا أن المعاجم العربية لا تميز بين اللغة واللهجة، ومثال ذلك ما نجده عند ابن فارس وغيره، في مادتي (لغو) و(لهج). فهل هذا هو الواقع، أم إن هناك فرقا بينهما؟ وإلى ماذا يشير هذا التداخل المعجمي بين المصطلحين؟

بالرجوع إلى المعاني الاصطلاحية لكل من اللغة واللهجة، يمكننا الإجابة عن هذه التساؤلات، حيث خلصنا من خلالها إلى ما يمكن اعتبارها فوارق بين كل من اللغة واللهجة، يمكن اختصارها في النقط الآتية:

اللغة أصل واللهجة فرع، والعلاقة بينهما علاقة عموم وخصوص. حيث تشمل اللغة الواحدة عدة لهجات.

وهي قضية عامة تخص كل اللغات، وبخاصة اللغات التي تنتشر في مساحات واسعة. ففي اللغة العربية لهجات متعددة، حيث نجد لكل بلد عربي لهجة خاصة، وداخل البلد نجد لهجات متعددة.

اللغة منقولة إلينا بالكتابة، بينما اللهجة متوارثة بالمشافهة. ولولا الكتابة لما حفظت اللغات، خاصة الكتابة

الدينية والعلمية، فاللغات المكتوبة هي التي عُرفت وحَظيت بالدراسة والاستمرار، لا سيما اللغة العربية التي حفظها القرآن الكريم، وما يزال المرء قادرا على قراءة ما كتب بالعربية منذ أزيد من عشرة قرون. وليس لدى اللهجات شكل كتابي لأنها تستعمل كلغة شفهية، وإن كانت تشترك مع اللغة المعيارية فونولوجيا وتركيبيا وصرفيا...

اللغة تكون ذات طابع رسمي، أو ما يسميه سوسير اللغة الأدبية[1]. فاللغة هي ركن من أركان سيادة الدولة، بها تصاغ القوانين، وبها تتم التعاملات الرسمية. وبها يتم التعليم... بينما اللهجة ذات طابع شعبي وعامي فهي المستعملة في الحديث اليومي بين الناس.

1- انظر: سوسير فرديناند، علم اللغة العام. ترجمة يوئيل يوسف عزيز. دار آفاق عربية، ط3، 1985. ص40

اللغة معيارية تخضع لقوانين صارمة يصعب الخروج عليها، كما أنه ليس من السهل استحداث مفردات

وألفاظ جديدة، بينما في اللهجة نجد المفردات تتجدد مع تجدد الأجيال، ولا تنضبط لقوانين نحوية صارمة.

اللغة تكون ذات أصل متجذر في التاريخ ولها نسقها الخاص الذي يكون مهيمنا في بنائها النحوي

والصرفي، بينما اللهجة تكون مستحدثة ومتفرعة عن اللغة وتعرف مزيجا متداخلا ومختلطا من الأنساق اللغوية الأخرى[1].

بناء على هذه الفوارق المستخلصة من التحديدات اللغوية والاصطلاحية، يحق لسائلٍ أن يسأل عن ماهية العلاقة بين اللهجات العامية واللغة العربية الفصحى، هل تعبر الفصحى والعامية عن ازدواجية لغوية، أم أنها تعبر عن مستويات لغوية؟ هذا ما سنحاول توضيحه في السطور اللاحقة من هذه الورقة.

المبحث الثاني: الفصحى واللهجات ازدواجية أم مستويات لغوية

تُطلق لفظة «الفصيح» أو «الفصحى» فيُقصد بها المستوى الأعلى من الأداء اللغوي، ومن ثم توصف العربية بالفصحى عندما تحترم فيها قوانين اللغة وقواعدها، فنقول حينئذ بأن فلانا يتكلم بالفصحى أي أنه لا يلحَن، ويؤدي اللغة كما هي سليمة من الأخطاء.

ويطلق تعبير الازدواجية اللغوية Le Bilinguisme، حسب مالمبرج (Malmberg[2]) فيقصد به كل تداخل بين الأنظمة اللغوية[3]. أي وجود نظامين لغويين مختلفين عند نفس المتكلم.فمزدوج اللغة «هو الذي يتدبر أموره بشكل عادي عبر لغة ثانية غير لغته الأم... كما أن مزدوج اللغة مسيطر سيطرة تامة على اللغتين»[4]. فالمقصود من ازدواجية اللغة عند مالمبرج رهين بوجود لغتين متمايزتين كالفرنسية والانجليزية مثلا... وبالتالي يستبعد وصف اللهجات باعتبارها لغات ثانية.

1- اللهجات المغربية مثلا متفرعة عن اللغة العربية وهي أيضا خليط من أنساق لغوية مختلفة كاللغة الأمازيغية بلهجاتها، ولغات أجنبية كالفرنسية والاسبانية والانجليزية.

2- لساني فرنسي

3- منذر عياشي، اللسانيات والحضارة. عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1. 2013، ص 82

4- المصدر السابق

إن المعنى الأول للازدواجية من حيث هي مفهوم لساني يقتضي وجود لغتين. فهل يمكن تعميم هذا المفهوم على الفصحى والعامية؟ في الحقيقة ليس صحيحا إسقاط هذا التعميم على علاقة الفصحى باللهجات العامية. بمعنى أن اللهجات ليست لغات مستقلة عن الفصحى. يقول جوزيف فندريس (J.Vendryes[1]) بهذا الصدد «إننا لسنا إزاء لغتين من أصل مختلف وصلت بينهما صُدف التاريخ، ولكننا إزاء لغات (أو لهجات) من أصل واحد جعلتها الظروف التاريخية تختلف. ويوجد ممر غير ملموس بين الواحدة والأخرى، ولكن لا يوجد تعارض مذهل للغتين بحيث تقف الواحدة منهما أمام الأخرى، وتستخدم أدوات تعبيرية مختلفة»[2].

إن هذه الآراء تدعم مسألة كون العلاقة بين اللغة واللهجات ليست علاقة ازدواج وتعارض، بل هي علاقة أصل بفرع أو فروع، بالنظر إلى كون اللغة لا تكون بجانبها لهجة واحدة بل لهجات متعددة متفرعة عنها. ولا تشكل تلك اللهجات مع اللغة الأصل نوعا من الازدواج اللغوي. ومن ثم فإن قضية الفصحى واللهجات «لا تدخل في إطار ما تسميه اللسانيات ازدواجية اللغة، ولكنها تدخل في إطار آخر يمكن أن نصطلح عليه ب»المستويات اللغوية»»[3].

فما هو تفسير كون علاقة اللغة باللهجات المتفرعة عنها تدخل ضمن ما يسمى «المستويات اللغوية»؟

إنّ اللسانيات تفرق بين مستويين في دراسة اللغة، مستوى التمكن (la compétence)، ومستوى الأداء (la performance)، ويعرف تشومسكي[4] التمكن بقوله: «هو المعرفة التي يملكها السامع-المتكلم عن لغته»[5]. وأما الأداء فقد قال إنه: «يعكس التمكن مباشرة»[6]. فالتمكن من اللغة هو المعرفة الضمنية لنسقها وبنائها (ما يسميه تشومسكي بالبنية التحتية)، وهو أمر يتساوى فيه المتكلمون باللغة. أما الأداء فهو الإنجاز الفعلي لتلك اللغة (ما يسميه تشومسكي بالبنية الفوقية)، وهو أمر لا يتساوى فيه المتكلمون لأسباب متعددة تتعلق بالمستوى التعليمي والاجتماعي والثقافي والديني...

1- لغوي وأنثروبولوجي فرنسي

2- فندريس جوزيف، اللغة. ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص. المركز القومي للترجمة. القاهرة، عدد 1889. ط2014. ص372

3- منذر عياشي، اللسانيات والحضارة. ص82

4- عالم لسانيات أمريكي

5- منذر عياشي. اللسانيات والحضارة. ص 82

6- المصدر السابق

وعلى الرغم من ذلك «وإن كان التفاوت قائما أن عملية الإيصال ممكنة أو هي قائمة فعلا بين أفراد الجماعة الواحدة»[1].

إن التمكن عند الناطقين بالعربية فصحاها وعاميتها، لا يقوم إذن على ما يسمى ازدواجية اللغة. ويفسر منذر عياشي[2] ذلك بكون ذلك مخالفا لمنطق اللسانيات الحديثة، لأن المتكلم الواحد لا يستطيع أن يمتلك إلا تمكنا للغة واحدة وهي لغته الأم. أما تعلم لغات أخرى فيحصل بعد امتلاك اللغة الأم أولا. أي بحصول التمكن ثم يأتي التعلم ثانيا. ومن ثم فإن الفارق بين الفصحى والعامية هو فارق في الأداء لا يمس إلا السطح، أما التمكن، أي البنى الضمنية، فلم يتبدل ولم يتغير، وهذا الفارق طبيعي وموجود في كل اللغات الحية، ويعود كما أشرنا إلى مستوى كل متكلم في أدائه اللغوي وإنجازه الفعلي للكلام[3].

إن اللهجات المتكلمة في أوطاننا العربية ليست منفصلة عن الفصحى ولا تعيش في قطيعة معها، بل هي تمثل مستويات من الأداء اللغوي، يقترب أو يبتعد من اللغة المعيار بتأثير عوامل متعددة أهمها العامل الثقافي. وعند العالم اللغوي ابن جني إشارات في هذا الباب، منها قوله في معرض حديثه عن اللهجات العربية «الناطق على لسان لغة من لغات العرب مصيبٌ غير مخطئ، وإن كان غير ما جاء به خيرا منه»[4].

إن قول ابن جني يؤكد وحدة النظام اللغوي، كما يؤكد أن اللغة من حيث هي نظام، تتجلى في اللهجات من حيث هي أداء. وهذا يعني أن العلاقة بين الفصحى واللهجات قائمة غير منقطعة[5]. فهي تشكل مستوى من مستويات الأداء المتدني والمرِن والمتخفف من القوانين الصارمة للغة المعيار، ولكنها لا تشكل لغات مستقلة عنها.

خاتمة

لقد رأينا بناء على التحديد اللغوي والاصطلاحي أن مصطلح «اللهجة» يحيل على معنى الاستعمال والمثابرة، وهو معنى حاضر في اللهجات كونها وسيلة التواصل اليومي والعامي. كما رأينا أن اللهجة

1- المصدر السابق. ص83
2- لساني وناقد سوري
3- المصدر السابق. ص84
4- ابن جني، الخصائص. 2/12
5- منذر عياشي. اللسانيات والحضارة. ص 87

تحيل أيضا على معنى «اختلاط الأمر»، وهو ما نجده في اللهجات كونها خليطا من الأنساق اللغوية زيادة على نسقها الأصلي المتمثل في اللغة الأصل.

وخلُصنا بناء على آراء عدد من اللسانيين إلى أن اللهجات العامية في علاقتها بالفصحى هي علاقة أصل بفروع، ولا تمت إلى الازدواجية اللغوية بشيء، بل إن اللهجات هي مستويات من الأداء اللغوي للغة الأصل التي تفرعت عنها بفعل عوامل تاريخية وجغرافية وثقافية مختلفة.

إن النقاش المطلوب فيما يتعلق بموضوع اللغة واللهجة، هو النظر في كيفية تطوير الأداء اللغوي في اللهجات حتى يرقى إلى مستوى اللغة الفصحى، وكذلك النظر في طرق جعل اللهجات خادمة ورافدة للفصحى لا عائقا أمام استمرارها وانتشارها.

البيبليوغرافيا

ابن جني، أبو الفتح عثمان. الخصائص. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ط4.

ابن فارس، أحمد بن زكرياء. معجم مقاييس اللغة. ت عبد السلام هارون، دار الفكر.1979م

ابن منظور جمال الدين، لسان العرب. دار صادر – بيروت، ط3. 1414 هـ

سوسير فرديناند، علم اللغة العام. ترجمة يوئيل يوسف عزيز. دار آفاق عربية، ط3، 1985

شاهين، محمد توفيق. علم اللغة العام. مكتبة وهبة. ط1

فندريس جوزيف، اللغة. ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص. المركز القومي للترجمة. القاهرة، عدد 1889. ط2014

محيسن محمد سالم، المقتبس من اللهجات العربية والقرآنية. مؤسسة شباب الجامعة. 1986

المناوي، عبد الرؤوف زين العابدين. التوقيف على مهمات التعاريف. ت عبد الخالق ثروت. عالم الكتب، القاهرة. ط1، 1990م

منذر عياشي، اللسانيات والحضارة. عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1. 2013

منير بن رحال، مقال اللغة واللهجة، منشور على جريدة هسبريس الالكترونية بتاريخ: 7 أبريل 2019. الرابط: https://www.hespress.com/writers/427800.html

نايف معروف، خصائص اللغة العربية وطرائق تدريسها. دار النفائس، 2007

اللغة واللهجة في ضوء السياسات اللغوية

محمد احمداي[1]

تقديم

اهتمت اللسانيات الحديثة باللهجة اهتماما كبيرا. منطلقة في ذلك من القاعدة اللسانية البنيوية «دراسة اللغة لذاتها ومن أجل ذاتها». لكن هذا لم يمنع من ظهور العديد من الإشكالات المرتبطة بها خصوصا في علاقتها باللغة من خلال: تحديد الفروقات والعلاقات بينهما، ومن خلال السياسة والمجتمع أيضا بسبب ارتباط اللغة بالسياسة مع بروز اللسانيات الاجتماعية، والسياسة والتخطيط اللغويين. فقد أصبح تدخل السياسي في اللسان الإنساني سواء بتصنيفه لهجة أو لغة يعتمد على شروط ومعايير دقيقة نابعة من إرادة سياسية معينة تسعى السلطة إلى تحقيقها داخل مجتمع من المجتمعات. وفي غياب هذه الشروط والمعايير التي ترسم لنا خريطة طريق لتدبير الشأن اللغوي في إطار «التخطيط اللغوي» فإن الوضع سيتسم بالعشوائية والفوضى، تلك الفوضى التي ستعيق تحقق عدة مصالح اجتماعية على مستوى الثقافة والتعليم والاقتصاد...

لذلك هذا البحث حاول الإجابة عن الإشكالات المرتبطة بهذه القضايا من خلال المحاور الآتية:

الفرق بين اللغة واللهجة.

المفاضلة بين اللغة واللهجة.

علاقة السياسة باللغة.

ضرورة تدخل السياسي في الشأن اللغوي.

واقع السياسة اللغوية في البحث العلمي بالبلدان العربية.

أولا: الفرق بين اللغة واللهجة

لتحديد الفرق بين اللغة واللهجة لابد من تجاوز المدلولات اللغوية إلى المعاني الاصطلاحية والوظيفية؛ لأن المعاجم تشير إلى المعنى التواصلي لهما، وهوا لجانب المشترك بين اللغة واللهجة.

1- باحث السياسة اللغوية، جامعة محمد الأول – وجدة.

ولبيان الفرق بينهما ينبغي تحليلهما وربطهما باستعمالاتهما الوظيفية ليتضح أن اللهجة تكون جزءا من اللغة عندما نتحدث عن لهجات مشكلة للغة كما حصل للغة العربية مثل لهجة تميم ولهجة قريش ولهجة بكر... أو عندما تكون متفرعة عنها مثل الإيطالية والإسبانية والفرنسية...»لهجات» متفرعة عن اللغة اللاتينية. قبل أن تصبح لغات مستقلة لأسباب سياسية وجغرافية ولسانية. وفي هذه الحالة سيتداخل مفهوم اللهجة مع مفهوم العامية، وسيصبحان بمعنى واحد. فنقول اللهجة الخليجية واللهجة المصرية واللهجة المغاربية واللهجة الشامية ونقصد العاميات.وهذه الحالة تفرض وجود علاقة بين اللغة ولهجاتها.

كما أن هذه المعاني قد نجدها في الدلالات الاصطلاحية أيضا فقد ورد في المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات تعريف اللغة بأنها: «نظام العلامات الصوتية التي تعد خاصية مشتركة بين البشر والتي تتنوع بتنوع العشائر اللغوية. وسيلة للتواصل تكمن في القدرة الخاصة بالكائن البشري على استخدام نظام من العلامات الصوتية مستعملا، في ذلك تقنية جسدية معقدة تفرض وجود ملكة فطرية خاصة.»[1] فهذا التعريف ينسجم مع اللهجة أيضا لاشتراكهما في الخاصية الإنسانية، فبذلك تكون اللغة مرادفة للهجة لأن المقصود بها اللسان الإنساني.

أما حين تنعدم هذه العلاقة ويستقل اللسان عن غيره من التداولات الأخرى نكون أمام لهجة بمعنى «لغة ضعيفة» أي غير موحدة ولا مكتوبة وقليلة الانتشار. فتسمى لهجة بدلا من لغة لأنها رغم استقلالها اللساني لا تؤدي وظائف اللغة المختلفة، بل تقتصر على الوظيفة التواصلية اليومية بين متحدثيها. ومن هنا تحصل المفاضلة بين اللغة واللهجة.

ثانيا: المفاضلة بين اللغة واللهجة:

عنصر المفاضلة بين اللغة واللهجة تفرضه الوظائف والصفات الني تتميز بها كل واحدة منهما. وأهم صفة تميز اللغة عن اللهجة هي الكتابة، فالكتابة تخرج التداول اللساني من نمطه الفولكلوري الشعبي إلى النسق الحضاري والثقافي. وهذه الصفة تفتقدها اللهجة فقد عرفت بأنها: «نظام من الدلائل الصوتية والقواعد التأليفية لها أصل واحد كاللغة غير أنها لم تكتسب الوضعية الثقافية والاجتماعية التي ارتقت إليها هذه اللغة وتكون –عادة-غير مكتوبة ولا رسمية»[2] فهذا يجعلها أقل

1- المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات-مكتب تنسيق التعريب بالرباط-ط2-2002. ص83
2- المرجع السابق – ص45

شأنا من اللغة ويضفي عليها صفة البدائية، «فالمسلم به أن كتابة اللغة مرحلة متقدمة في حضارة الأمم، فالشعوب البدائية لغتها منطوقة غير مكتوبة، وإن الأبجدية تهئ للأمة فرصة المحافظة على ثقافتها من الضياع.»[1]

كما يعد الجانب اللساني الداخلي أيضا عاملا أساسيا في المفاضلة، فاللغة تتميز بالشمول والشساعة والدقة، والرصيد العلمي القوي من معاجم وعلوم لغوية مرتبطة بها، عكس اللهجة تماما التي تبقى مقتصرة على الذاكرة الجماعية لمتحدثيها دون نظام لغوي يؤطرها. بالإضافة إلى ذلك فاللهجة غير قادرة على أداء الوظائف اللغوية كاملة، فهي لا تصلح أن تكون لغة للبحث العلمي الرصين، أو لغة للتخاطب الدبلوماسي العالمي، أو لغة مؤثرة في السوق الاقتصادية والثقافية. فمفهوم اللهجة يحمل معاني القبيلة بينما مفهوم اللغة يحمل معاني الأمة، فضلا عن المفاضلة السياسية التي تكون فيها اللغة متميزة بالطابع الرسمي، خلافا للهجة التي تفتقد هذه الصفة في غالب الأحيان.

ثالثا: علاقة اللغة بالسياسة:

العلاقة بين السياسة واللغة علاقة وطيدة تؤثر فيها السياسة على اللغة بما يجعلها لغة قوية، حية، مستعملة. أو بما يجعلها مهمشة، ذابلة، لا يلتفت إليها ولا يهتم بها. فرغم وجود الخصائص الداخلية للغة التي تساعدها على البقاء والانتشار إلا أن العامل السياسي يكون أقوى. باستطاعته أن يحول لغة قوية إلى لغة مهمشة داخل وطن ما، كما بإمكانه أن يحول لغة ضعيفة إلى لغة قوية مستعملة داخل وطن ما، حتى وإن كانت هذه «اللغة» تفتقد لعناصر القوة ولا تؤدي إلا وظائف اللهجة. لذلك يرى اللغوي الفرنسي LOUIS-JEAN CALVET أن «اللهجة ليست سوى لغة مهزومة، أما اللغة فهي لهجة نجحت سياسيا»[2]. لأن الإرادة السياسية تمتلك من الوسائل والأدوات ما يمكنها من ذلك، فبإمكانها تنمية لهجة ما والاهتمام بها لأسباب متعددة بدعمها علميا من خلال تقعيدها وصناعة معاجم لها ووضع كتابة خاصة بها، ثم دعمها إعلاميا وتعليميا ومجتمعيا وبعد ذلك ترسيمها قانونيا لتصبح بعد مدة قصيرة لغة كاملة الأركان. وهذه الأدوات العلمية والسياسية والعسكرية هي

1- مجلة الدراسات اللغوية-مج 15. ع1 دسمبر-فبراير 2013-عنوان المقال أثر السياسة في الأبجدية العربية انموذجا-مقبل بن علي الدعدي.

2- محمد السعد-مقال جدلية اللهجة واللغة بين اللغويين العرب-الموقع الإلكتروني للائتلاف الوطني من أجل اللغة العربية-نشر بالموقع يوم 19 نوفمبر 2018. مقتطف بتاريخ 2020/08/25.

التي عبر عنها MAX WEINREICH بقوله: «إن اللغة ليست إلا لهجة تملك جيشا وبحرية». فالسياسة تهتم باللغة لأن اللغة ترتبط بالهوية والأمن القومي، وتستعمل في توطين الاستعمار كما فعلت فرنسا في مستعمراتها، ثم لأنها وسيلة للتغيير الثقافي والفكري كما حصل بين اللغة التركية والعربية في عهد كمال أتاتورك حين وظف اللغة لتحويل تركيا من الدولة الدينية إلى الدولة العلمانية. «فالسياسة تعصف بالواقع اللغوي عصفا رهيبا، فالأقوياء لغتهم لها التمكين والسيطرة والشيوع، أما الضعفاء فلغتهم لها الضعف والتنحية والإزاحة من مواقع التعامل والتأثير».[1]

رابعا: ضرورة تدخل السياسي في الشأن اللغوي

حديث الفاعل السياسي عن اللغة الرسمية تفرضه الوضعية القانونية للدستور في إقرار اللغة أو اللغات الرسمية، لأن هذه الصفة تمكن اللغة من أداء عدة مهام في الحياة العامة. وبالتالي ينبغي ترسيم اللغة بناء على عدة اعتبارات وظيفية وثقافية وهوياتية. فشروط إقرار أو إلغاء أية لغة تحددها خلفية السياسي. فترسيمه للغة ما قد يكون بدافع وظيفي تحققه هذه اللغة داخل المجتمع، من خلال خلق التواصل الناجح بين مختلف الأفراد والمؤسسات. لذلك قد يرفض التعدد اللغوي الرسمي داخل الدستور لهذا الاعتبار، لأنه يرى لا جدوى لساني من ترسيم لغات أخرى كما «في المغرب على سبيل المثال لا جدوى لساني من ترسيم تداولات أخرى لأن العربية قائمة بهذا الدور.»[2] لكن قد يكون هناك جدوى ثقافيا أو أمنيا أو تاريخيا يدفع السياسي إلى ترسيم لغات أو لهجات أخرى كما هو الشأن بالنسبة للأمازيغية في المغرب مع تحويلها من صفة اللهجة إلى اللغة من خلال توحيدها وتقعيدها وجمع معجمها وجعلها مكتوبة مع منحها الطابع الرسمي.

من هذا الجانب يحق للسياسي وضع شروط للتداول اللساني حتى تعطى له الصفة الرسمية، ومن أهم هذه الشروط انتشار اللغة وتداولها بين المواطنين، ففتح الباب على مصراعيه لترسيم كل تداول لغوي مستعمل في البلاد سيجعل الدولة تتسم بالفوضى اللغوية خصوصا في البلدان التي تعرف تعدد اللغات واللهجات إلى عدد كبير جدا كما الحال في دولة الهند حيث يبلغ عدد لغاتها ولهجاتها حوالي ألفي لغة ولهجة وكل لغة أو لهجة تنحصر في إقليم أو قبيلة دون غيرها، فترسيمها جميعا سيطرح مشكل التواصل وسيعيق الخدمة العامة ويفرض على الدولة الترجمة بشكل غير طبيعي،

1- اللغة والسياسة في عالم ما بعد 11 سبتمبر-د. محمد محمد داود-ط 2003-ص 48.

2- السياسة اللغوية في البلاد العربية-د. عبد القادر الفاسي الفهري-ط الأولى 2013-ص269.

لذلك فالوضعية الرسمية للغة ينبغي أن تحددها بالدرجة الأولى الخاصية الوظيفية والتواصلية والوحدوية دون إهمال الجانب الثقافي والتاريخي للغة.

خامسا: واقع السياسة اللغوية في البحث العلمي بالبلدان العربية:

السياسة اللغوية في البلاد العربية شبه غائبة، فمعظم البلدان العربية لا تعتمد سياسة لغوية واضحة، ولا تدبر الشأن اللغوي اعتمادا على أسس التخطيط اللغوي، «فلا نعرف بلدا عربيا يقوم بتقييم شامل للكلفة الاقتصادية والمجتمعية والسياسية العامة للسياسة اللغوية التي يتبعها في التعليم والإعلام والإدارة إلخ، بل قبل هذا، نجد جل البلدان العربية لا تقيم سياسة لغوية واضحة، مقترنة بخطة لغوية يمكن تحديد فوائدها ونتائجها، ثم قياس مدى نجاحها ونجاعتها»[1]. وبالتالي فالنتيجة الحتمية لهذا الوضع هو ضعف البحث العلمي في السياسة والتخطيط اللغويين، فما دامت هذه البلدان لا تعير اهتماما للشأن اللغوي داخل المجتمع، فبالتالي لن تدعم البحث العلمي في هذا الجانب، فما تجده من أبحاث ودراسات -نادرة-تكون في غالب الأحيان ناتجة عن جهود فردية لبعض الباحثين أو المؤسسات. فمعظم الأبحاث اللغوية في البلاد العربية تهتم بالجانب العلمي للغة من معجم ونحو وبلاغة وأدب... متغافلة عن اللسانيات الاجتماعية والسياسة اللغوية، فحظ هذه الأخيرة ضعيف جدا حتى في المقررات الجامعية. رغم الأهمية الكبرى للسياسة اللغوية في تنمية اللغة أو اللغات الوطنية والتي قد تكون في كثير من الأحيان أهم من الجانب العلمي، خصوصا في الفترة التي تمر فيها البلاد بانقلابات لغوية كما يحدث في المغرب بين العربية لغة البلاد والفرنسية لغة المستعمر. فالمؤسسات اللغوية أيضا كالمجامع اللغوية تصب اهتمامها الكبير على الأبحاث العلمية للغة على حساب الجانب السياسي فيها.

خاتمة

تحتاج قضية اللغة واللهجة إلى كثير من البحث. لأنها تطرح إشكالات عديدة ومتنوعة، واكبت الدرس اللغوي عبر مختلف مراحله القديم منه والحديث. غير أن هذه الإشكالات تتجدد عبر التاريخ مخلفة قضايا جديدة تتناسب وحاجيات المجتمع اللغوية كموضوع السياسات اللغوية الذي برز

1- المرجع السابق-ص284.

بقوة مع تنظيم الدولة الحديثة. لذلك حاول هذا البحث معالجة بعض هذه الإشكالات فخلص إلى ما يلي:

- أن هناك فرق بين اللغة واللهجة، كما أن بينهما أشياء مشتركة كالخاصية الإنسانية والتواصل.

- المفاضلة بين اللغة واللهجة قائمة على أسس وظيفية ولسانية ثم سياسية.

- علاقة اللغة بالسياسي علاقة وطيدة، لأن السياسة تؤثر في اللغة تأثيرا كبيرا.

- تدخل السياسي في الشأن اللساني تدخل ضروري، تبرره الأهداف الني تسعى السلطة السياسية لتحقيقها من خلال اللغة، وتجنب الفوضى اللغوية التي قد تنتج عن تعدد اللغات أو اللهجات داخل الوطن.

- البحوث العلمية في مجال السياسة اللغوية قليلة جدا في البلاد العربية وذلك راجع لعدم اهتمام البلدان العربية بتدبير الشأن اللغوي، وبالتالي عدم دعم هذا المجال المعرفي.

البيبليوغر افيا

السياسة اللغوية في البلاد العربية-د. عبد القادر الفاسي الفهري-ط. الألولى 2013 دار الكتاب بالجديدة المتحدة.

اللغة والسياسة في عالم ما بعد 11 سبتمبر-د. محمد محمد داود-ط.2003-دار غريب للطباعة.

مجلة الدراسات اللغوية-مج 15. ع1. دسمبر-فبراير 2013. عنوان المقال «أثر السياسة في الأبجدية الغربية أنموذجا-مقبل بن علي الدعدي.

المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات-مكتب تنسيق التعريب الرباط-ط2-2002-مطبعة النجاح الجديدة.

الموقع الإلكتروني للائتلاف الوطني من أجل اللغة العربية-مقال جدلية اللهجة واللغة بين اللغويين العرب-محمد السعد-19 نوفمبر 2018.

من اللغة إلى اللهجات: دراسة في التفتت اللغوي للأمازيغية

مصطفى العادل[1]

مقدمة

تنتابني مشاعر متناقضة كلما حاولت الكتابة في القضية الأمازيغية، واللغة الأمازيغية بصفة خاصة، إذ أجد نفسي متقلبا بين مجموعة من المعطيات المتناقضة أحيانا، المتّفقة أحيانا أخرى، ووسط زخم من المعلومات لا يكاد بعضها يؤكد البعض الآخر، وكم هائل من المعارف لا تجعلني في نهاية المطاف قادرا على وضع تصور دقيق لإشكالات اللغة الأمازيغية، سواء من حيث اللغة ذاتها، أو من حيث علاقاتها بمختلف المجالات والقضايا التي تتداخل معها.

ومن الحقائق التي لا تخطئها العين أن اللغة الأمازيغية، لسان طبيعي كباقي الألسن البشرية، يخضع لما تخضع لها تلك الألسن، وله نظام صوتي وتركيبي وصرفي ودلالي، ولها معجم غني كما هو الشأن بالنسبة لمختلف اللغات والألسن البشرية، إلا أنه مع ذلك ما يزال يفتقر لدراسات دقيقة تتعمق في مختلف هذه الجوانب. فاللسان الأمازيغي وإن انتشر في بلدان كثيرة وتوارثته أجيال عن أجيال، فإنه ما يزال في الحاجة إلى جهود تنظيرية يعود إليها ويؤسس عليها مشروعه للمستقبل، وهو ما يقف عقبة أمام كل خطوة تسعى إلى البناء انطلاقا من الأمازيغية واعتمادا عليها -كما هي اليوم على ألسنة المتكلمين بها-.

لقد شعرت بأهمية الدعوة إلى دراسة اللسان الأمازيغي والوقوف عند مستوياته اللغوية بشيء من العلمية مستفيدين مما تتيحه لنا اللسانيات الحديثة من مناهج علمية في دراسة الألسن الطبيعية مهما كانت طبيعتها ووضعها.

ولأن اللسان الأمازيغي يختلف كثيرا-من حيث الدراسات والتراث اللغوي والأدبي الخاص به-عن واقع باقي الألسن الحية اليوم، فإنه في أمس الحاجة إلى دراسات علمية تنطلق من بنيته كما هو على ألسنة المتكلمين بلهجاته المختلفة.

1- باحث في اللسانيات العامة، جامعة محمد الأول-وجدة

ومما ينبغي التنبيه إليه أن دراسة اللغة الأمازيغية دراسة لسانية علمية سيجعلنا مضطرين إلى تجاهل جزء كبير مما كتب عنها مؤخرا من تآليف تدرس اللغة من منظور إيديولوجي، وتقحم اللغة في مجالات سياسية وفكرية، إذ إن تلك الدراسات التي تنطلق من هذه الأرضية لا يمكن أن تحقق نتائج علمية في دراسة اللغة الأمازيغية، ولا شك أن المنهج البنيوي الوصفي سيمنحنا فرصة كبيرة لدراسة نظام اللغة الأمازيغية –في مرحلة أولى على الأقل-على أساس أن تشتغل اللسانيات بفروعها المختلفة على دراسة هذه اللغة من كل الجوانب والمستويات الأخرى.

إن المنهج البنيوي الوصفي أضحى ضرورة ملحة في المرحلة الأولى؛ حيث يمكّننا من فهم اللغة في ذاتها ومعرفة بنيتها الداخلية، ولا شك أن الاتجاهات والمدارس التي عرفتها اللسانيات الحديثة خارج الأوطان العربية، ما كان لها أن تنجح لولا استفادتها من المنهج البنيوي، فهي، إذن، مرحلة متقدمة وجملة من المعارف تراكمت فأسست أفكارها انطلاقا مما توصلت إليه البنيوية. وهذا الإشكال ما يزال عائقا أمام اللسانيات في أوطاننا العربية؛ حيث يفهم التوليدي والوظيفي أن المنهج البنيوي لا فائدة منه، فيتجاهل بذلك قضية التراكم المعرفي بين المناهج والاتجاهات اللغوية الحديثة، مما يؤدي بنا في نهاية المطاف إلى خلل في فهم أدبيات هذا العلم.

لقد انطلقنا في هذه الورقة من فكرة مفادها أن اللغة الأمازيغية في نهاية المطاف-وبالرغم من الاختلاف والتباين بين لهجاتها-لغة واحدة، وأن اللهجات مهما بدا لنا الاختلاف بينها لن تقف حاجزا أمامنا في دراسة اللغة دراسة علمية. وانتقال اللغة الأمازيغية من لغة واحدة إلى مئات اللهجات في العالم لا ينبغي أن يجعلنا ننظر إلى اللهجات الأمازيغية بنوع من النفور، وإطلاق الأحكام الجاهزة المفتقرة إلى دراسات علمية دقيقة.

إن التفتت الذي حدث للغة الأمازيغية جاء نتيجة تظافر عوامل مختلفة كثيرة، فقد انتشرت اللغة العربية في البلدان التي كانت تتكلم الأمازيغية بفضل رسالة الإسلام، ثم جاء الاحتلال الأجنبي، فأقحم لغاته مقابل محو اللغة الأم للبلدان الأمازيغية، ومحو العربية لغة الدين لهذه البلدان. وبين سيطرة لغات المحتل ومقاومة لغة الدين المستندة إلى القرآن والتراث العربي الضخم، ضاعت الأمازيغية الفقيرة المستضعفة وتفتتت، وتلونت لجهاتها في مختلف المناطق باللغات المجاورة حتى صارت تلك اللهجات أقرب ما تكون إلى لغات مستقلة. وبينما وجدت اللغات الأخرى من يدعمها ويدافع عنها علميا وعمليا، ويقف إلى جانبها في ساحة حرب اللغات، لم تجد الأمازيغية موقعا لها،

اللهم إذا استثنينا بعض المنابر الإعلامية وبعض المعاهد والمراكز، وبعض الدراسات النادرة لا تخرج في معظم الأحيان عن طابعها الإيديولوجي الضيق.

إن اللغة الأمازيغية ستتمكن من تجاوز جملة من الإشكالات إذا استطعنا دراسة قضاياها اللغوية دراسة علمية، لذلك اقترحنا الانطلاق من فرضية كون اللغة الأمازيغية لغة واحدة تفرعت إلى لهجات يطلق عليها البعض اليوم جهلا وعمدا لغات، وهذه الفرضية تحتاج إلى دراسات علمية يكون موضوعها اللهجات الأمازيغية بمختلف أنواعها؛ وذلك لأن التأمل الدقيق في المستويات اللغوية المختلفة لهذه اللهجات يقود الباحث إلى حقيقة مفادها أن أوجه التشابه والتماثل بينها أكثر وأكبر بكثير من أوجه الاختلاف والتباين.

ولأن المقام هنا لا يسمح بهذه الدراسات المطولة، فقد كان هدفنا هو التطرق إلى مسألة التفتت اللغوي للأمازيغية، سعيا منا إلى إثبات وحدة اللغة الأمازيغية وتشابه لهجاتها المتعددة المتفرعة عن اللغة الواحدة، وقد قسمنا الورقة إلى مبحثين بعد هذه المقدمة، تحدثنا في المبحث الأول عن مسألة التفتت اللغوي لأمازيغية وتفرع هذه اللغة إلى لهجات مختلفة، ثم أكدنا في المبحث الثاني مسألة وحدة اللغة الأمازيغية، وختمنا البحث بجملة من الخلاصات والتوصيات.

المبحث الأول: تفتت الأمازيغية وظهور اللهجات

من المتفق عليه اليوم أن اللغة الأمازيغية تفتت إلى لهجات أضحت اليوم أقرب إلى لغات مستقلة من كونها لهجات متفرعة عن لغة أو لسان واحد، وهذا التفتت جاء –في نظر بعض الباحثين-من خلال التلوين، تلوين النطق بصور تخرج قليلا أو كثيرا عن ضوابطه الأصلية في اللهجة الأم، وعن طريق تلوين المعجم بما يفد إليه من لغات أخرى»[1]. ومن تم فالتلوين اللهجي «يؤدي إلى التباعد عن الأصل ثم تكون نتيجة التلوين والتباعد، لهجة جديدة في إطار تلك اللغة. وإذا استمر التلوين والتباعد عن الأصل، فقد يؤدي ذلك إلى نشوء لغات جديدة»[2].

وانطلاقا من هذه الحقيقة، يبقى التقسيم القديم للهجات الأمازيغية إلى تمازيغت وتشلحيت وتريفيت متجاوزا، وذلك لأن لهجة منطقة الأطلس بوحدها أصبحت اليوم بفعل التلوين عشرات

1- استيتية سمير شريف، اللسانيات: المجال، والوظيفة، والمنهج، عالم الكتب الحديث-إربد الأردن، الطبعة الثانية 2008/ الطبعة الأولى 2005، ص 646

2- المرجع نفسه، ص 646-647

من اللهجات الأمازيغية. بينما أصبحت تلك اللهجات الأولى أقرب ما تكون إلى لغات لا يفهم أهل بعضها لغة البعض الآخر كما هو الشأن بالنسبة لأمازيغ سوس بالجنوب وأمازيغ الحسيمة والناظور بالشمال.

ومما لا يخفى على أحد أنه ثمة عوامل كثيرة أسهمت بشكل من الأشكال في تفرع الأمازيغية إلى لهجات عديدة داخل المغرب لدرجة يسميها الكثير من الباحثين لغات أمازيغية كما هو الشأن بالنسبة للدكتور محمد الأوراغي، والإشكال المطروح هنا هو صعوبة التواصل بين أبناء هذه اللهجات، إن لم نقل: إنه يستحيل ذلك في كثير من الأحيان، مما يعيق أي حديث عن لغة أمازيغية في التعليم والإعلام وغيرها من القطاعات الحيوية. وقد أكد ابراهيم حسناوي من خلال دراسته[1]، أن كل ما تقدمه القناتين الأولى والثانية فيما يخص المسألة الأمازيغية: ليس في متناول الجمهور، ثم إن البرامج اللغوية لا تحدد الجمهور الذي تخاطبه ولا تنجز استطلاعات ميدانية، كما أقر بوجود «جمهور ما زال يعترف كذلك بأنه لا يستوعب الكثير من الكلمات والجمل الأمازيغية في القناة، مما يؤثر سلبا على إدراكه لصورها، وهناك جمهور آخر يعتبر أن لغته غير حاضرة في القناة بتاتا، كما جاء في رأي متطلعين قلائل»[2].

والحق كذلك أن هذا يدفعنا في كثير من الأحيان إلى القول: إنه من الصعب أن نتحدث عن الأمازيغية في الإعلام والتعليم انطلاقا من وضعها الحالي، حيث سوف نجد أنفسنا أمام ضرورة تعلم وتعليم ثلاث لغات مختلفة في الوقت نفسه، ليبقي التحدي الأهم هو الوصول إلى أمازيغية موحدة قابلة لأن تكون إعلامية وتعليمية. وقد بدلت جهود في هذا المجال إلا أن ذلك لا يؤهل أمازيغية اليوم بأن تكتسب رسميتها على أرض الواقع، فإلى اليوم ما يزال الأمازيغي في سوس والأطلس يفضل أن يتابع نشرات الأخبار بالعربية على أمازيغية الريف لعجزه عن فهمها وشعوره بمواجهة لغة أخرى لا يعرف منها شيئا، قال حسناوي: «إن وجود لغة أمازيغية متعددة جعلت المهنيين أساسا يقرون بوجود إشكال لغوي يصعب على قناة تمازيغت تدبيره في البداية على الأقل»[3].

1- البرامج الأمازيغية في القطب التلفزيوني العمومي، إبراهيم حسناوي، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، المعارف الجديدة سلسلة دراسات وأبحاث رقم 29، 2012. ص:25

2- المرجع نفسه، ص: 122

3- المرجع نفسه، ص: 120

ومع ذلك فلا ينبغي التسليم بهذه المعطيات والاقتناع بأن كل لهجة اليوم أصبحت لغة مستقلة بشكل كامل عن اللهجة الأخرى، بل ينبغي الرجوع إلى الدراسة العلمية لهذه واللهجات كما هي على لسان المتكلمين بها لإدراك حجم التشابه والاختلاف بينها، والوقوف على طبيعة هذه الاختلافات وتجلياتها، فكثير من الكلمات بل جلها في اللهجة السوسية هو نفسه في اللهجة الريفية ويكمن الاختلاف فقط في طبيعة النطق وفي بعض التغييرات الطفيفة بفعل التلوين.

المبحث الثاني: الأمازيغية لغة واحدة:

إن جميع اللغات والألسن لم تعرف في بداياتها لهجات متعددة، وإنما كانت لغات أحادية موحدة[1]، ومنه أن اللغة العربية كانت في زمن من الأزمان لغة عربية واحدة، وإلا فلماذا سمي القوم المتكلم بها أعرابا؟، والشيء نفسه في باقي اللغات.

والوحدة هي الأصل في كل شيء، إذ لم يقل أحد حسب علمنا، أن آدم كانت له لغات متعددة، وإنما تعددت اللغات بتعدد الذوات المتكلمة بها، ومن المفترض أن تتحول اللهجات التي نعرفها اليوم إلى لغات مستقلة، حيث كلما تباعدت الذوات المتكلمة زمانا ومكانا، إلا وتباعدت اللهجات داخل لغة واحدة وازدادت الاختلافات بينها شساعة، واستقلالا.

والذي يزكي هذا الطرح هو التطور الذي تشهده كل لغة بشرية، حيث تتغير المعاني والدلالات من زمن لآخر، كما تظهر ألفاظ جديدة وتهجر أخرى، مما سيعطينا في نهاية المطاف لغتين مختلفتين كانتا في البداية لهجتين من لغة واحدة، ثم إن هاتين اللغتين الجديدتين سوف تتفرعان بدورهما إلى لهجات أخرى، وهكذا دواليك.

ولا شك أن المتتبع للهجات الأمازيغية المختلفة من سوس بالجنوب صعودا نحو الأطلسين المتوسط والكبير، وصولا إلى الحسيمة والناظور وفجيج شرقا، تم المقارنة بين هذه اللهجات فيما بينها وعلاقاتها باللهجات المتداولة بدول شمال افريقيا، سوف يدرك أن هناك قدرا مشتركا من الألفاظ، وهو ما اخترنا أن نسميه بالقاموس الأمازيغي المشترك، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهناك اتفاقا كبيرا بين عدد كبير جدا من الألفاظ، مع اختلاف بسيط سواء في بعض الأصوات

1- يعني أنها كانت لغة واحدة عند كل المتكلمين بتلك اللغة، ولم تكن تعرف أي لهجة ضمنها، وهي لا شك مرحلة متقدمة في كل اللغات الانسانية.

أو الدلالات والمعاني، أو غيرها من المستويات اللغوية التي تدرس اللغة في إطارها، وهو ما سنحاول الوقوف عنده في القادم من البحوث بإذن الله تعالى.

لا شك أن اللهجات بصفة عامة، والأمازيغية بصفة خاصة هي تفرعات لهجية عن لغة واحدة، كانت في البداية بدورها لهجة إلى جانب لهجات أخرى كلها متفرعة عن لغة واحدة، وهي الحقيقة التي لا يمكن إنكارها، بل هي بديهية، وحتى إذا سلمنا بالتقسيم الثلاثي للغات الإنسانية إلى السامية، نسبة إلى سام الابن الأول لنبي الله نوح عليه السلام، والحامية نسبة إلى ابنه الثاني حام، واليافيثية نسبة إلى يافث ابنه الثالث، فإن ذلك يؤكد أن اللغات في هذه المرحلة كانت لا تخرج على ثلاث لغات، لتتفرع بعد ذلك إلى لهجات متعددة ومستقلة، تمكنت في مرحلة أخرى متقدمة بأن تصبح لغات مستقلة، مع أنها فرع عن إحدى اللغات الثلاث الأولى، أو بالأحرى اللهجات الثلاث، فما دام أنها تعود لثلاثة إخوة لاشك أنها كانت لغة واحدة عند الأب قبل كل شيء. واللغات البشرية التي توجد اليوم على هذه الأرض كلها تعود إلى هذا الأصل الواحد. ثم إنه لا يتصور أن يتكلم الناس في هذا الكون بأكثر من مائة لغة عندما كان عددهم لم يتجاوز بعد مائة شخص...

يجد معظم الباحثين أنفسهم أمام إشكالية الأصل في هذه اللهجات الأمازيغية، فمعظم المهتمين يثيرون إشكالية اللهجة الأصل لهذه اللهجات، والحديث عن هذا الموضوع لا يخلوا من الغلو والافتراض دون اعتماد الأدلة ومقارعة الحجة بالحجة، وهو في نهاية المطاف أمر معقد يحتاج لكثير من التريث والبحث الدقيق قبل إصدار الأحكام المطلقة هنا وهناك دون أدنى قدر ممكن من العلمية والموضوعية في تناول الموضوع، ومن جهة أخرى فانعدام المراجع المكتوبة والمخطوطات كلها تعرقل مسيرة البحث في هذه القضايا، مما يجعلنا مضطرين للنزول إلى الشارع الأمازيغي العام للسماع والملاحظة اللسانية العلمية الدقيقة بعيدا عن الحمولة الفكرية والقبلية العصبية في تناول المعطيات اللسانية.

ثم إن البحث عن الأصل في هذه اللهجات ليس إلا جريا وراء السراب، لأن كل لهجة تحمل معها شيئا من اللسان الأصل وشيئا من الألفاظ الدخيلة إليها بسبب هذا العامل أو ذاك، ويفضل البحث في مدى تمسك اللهجة باللغة الأصل، لا في البحث هل هي أصل ام لا.

إننا نقترح إلغاء كل الافتراضات والتخمينات التي أقرتها بعض الجهات المندفعة وراء العاطفة والايديولوجية التي لم تستند إلى أي أساس علمي في إثبات الحقائق، مع الاستناد إلى المجهودات العلمية المنجزة في المجال، والتركيز على المتكلم الأمازيغي في قريته الجبلية واستعماله للأمازيغية

في تفاعلاته اليومية، ومحاولة تتبع تاريخ الألفاظ وما تتعرض له من تغير وتطور، قصد استنباط القضايا المهمة لخدمة اللغة الأمازيغية باعتبارها لغة كباقي اللغات.

تأسيسا على ما سبق يمكن القول إن اللغة الأمازيغية في أصلها لغة واحدة تفرعت بفضل مجموعة من العوامل إلى لهجات متعددة، يمكن الانطلاق من خلال تتبعها ودراستها والمقارنة بينها للوصول إلى هذه اللغة الأمازيغية الأولى، وهو ما يفتح أمامنا الباب على مصراعيه للغوص أكثر في أعماق هذه اللغة. إن هذه الحقيقة ستجعلنا أمام ضرورة دراسة هذه القضايا التي يتهرب منه الكثيرون بدعوى أن اللهجات الأمازيغية لغات مختلفة.

خاتمة

مهما بدأ الاختلاف جليا بين اللهجات الأمازيغية المختلفة والمتعددة، فإن ذلك لا يعني أنها لغات مستقلة، بل إن التأمل الدقيق في هذه اللهجات يقود الباحث إلى ذلك التشابه الكبير في الكثير من المستويات؛ حيث تبقى أصول الكلمات نفسها في كل اللهجات ولا يحدث التغيير إلا في طريقة النطق أو إحداث تغيير جزئي في المعاني ودلالات المفردات.

وقد جاءت هذه اللهجات من التفتت اللغوي الذي تعرضت له الأمازيغية شأنها في ذلك شأن باقي اللغات؛ حيث أسهمت عوامل كثيرة سياسية واقتصادية واجتماعية في خضوعها للألسن القوية المدعومة إلى درجة توقفها عن الإنتاج والإبداع، لذا يصعب اليوم إيجاد الآلاف من المفردات الأمازيغية لكثير من المعاني، ونحن الأمازيغ أنفسنا نعجز اليوم على التعبير عن كل الحاجات دون اعتماد مصطلحات عربية وأجنبية كثيرة جدا، لافتقار المعجم الأمازيغي المعاصر لكثير من هذه المفردات.

توصيات

انطلاقا من القضايا السابقة يوصي البحث بالنقط الآتية:

ضرورة البحث في اللهجات الأمازيغية بالمغرب وخارجه لإدراك أوجه التقارب والتشابه، وإنكار استقلال هذه اللهجات عن بعضها وتحولها إلى لغات.

الاستفادة من النظريات اللغوية والمناهج الحديثة في دراسة الأمازيغية باعتبارها لسانا بشريا طبيعيا كباقي الألسن.

إحداث لجن ومعاهد ومراكز بحثية ينصب اهتمامها على دراسة بنية اللغة الأمازيغية وتشخيص وضعها، ورسم آفاق جديدة في معزل عن العصبيات الضيقة والإيديولوجيات المقيتة.

تشخيص واقع الأمازيغية حاليا في ضوء ظاهرة التفتت والوقوف على مختلف العوامل التي أسهمت في تفرعها وإبراز أثر ذلك التفتت على اللهجات الأمازيغية المختلفة كما هي على ألسنة المتكلمين بها.

البيبليوغرافيا

البرامج الأمازيغية في القطب التلفزيوني العمومي، إبراهيم حسناوي، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، المعارف الجديدة سلسلة دراسات وأبحاث رقم 29، 2012.

ادريس بوكراع، محاضرات في علم المعجم بفرعيه: علم المفردات وعلم الصناعة القاموسية، سلك ماستر: (الدراسات اللغوية: قضايا ومناهج، الفوج العاشر، 2017)، جامعة محمد الأول-وجدة-المغرب.

استيتية سمير شريف، اللسانيات: المجال، والوظيفة، والمنهج، عالم الكتب الحديث-إربد الأردن، الطبعة الثانية 2008/ الطبعة الأولى 2005.

اللغة العربية الفصحى والدارجة: دراسة في جوانب الاتصال والانفصال

عاديل البقالي[1]

مقدمة:

تتعايش اللغة العربية مع اللهجات المتفرعة عنها تعايشا طبيعيا، إذ إن من خصائص كل لغة التعدد في مستويات استعمالها، فلا يكون مستوى استعمالها مستوى واحدا إلا إذا كانت اللغة معزولة ومقصورة على جماعة لغوية منعزلة، فاللغات العادية التي يتكلم بها الناس عادة ما تحتوي على ازدواجية لغوية، أو مستويان متعايشان من الاستعمال اللغوي؛ يسمى المستوى الأول بالمستوى المكتوب؛ ويمثل اللغة الرسمية للبلاد أو الدولة، والتي توظفها في صياغة الوثائق الرسمية، والمعتمدة في التعليم في المدارس، والصحافة، وصناعة الخطابات وغيرها من المجالات التي يتم الابتعاد فيها عن الارتجالية. ويمكن تسمية هذا المستوى بالمستوى الفصيح من اللغة.

أما المستوى الثاني فو المستوى الشفوي؛ وهو المستوى الذي نجده عند العامة من الناس، فهذا المستوى أشد ارتباطا بالعفوية والتلقائية في الكلام دون مراعاة للقانون النحوي الذي يحكم اللغة، ويكون أكثر بعدا عن التدبر والتأمل فيما سيتم قوله وغالبا ما يتسم بالسرعة، ويمكن تسمية هذا المستوى بمستوى الدارجة، ووصف كل مستوى باسمه إنما هو نابع من مجال وضوابط استعماله. كما أن داخل كل مستوى درجات متفاوتة من الاستعمال. وبذلك يكون «ادعاء كون الدراجة المغربية بعيدة الصلة بالعربية الفصحى، وأنها لغة مستقلة بذاتها ونسقها ومعجمها، وأشبه ما تكون بلغة كريولية هجينة أو عبارة عن خليط فقط من العربية والبربرية وبقايا الفرنسية والإسبانية وغيرها، كلام يفتقر إلى الدقة والموضوعية والنزاهة العلمية»[2].

1- باحث في سلك الدكتوراه، وحدة «الدرس اللغوي والخطاب القرآني» كلية اللغة العربية، جامعة القاضي عياض، مراكش، المغرب. elbaqaliadil@gmail.com

2- الودغيري، عبد العلي، لغة الأمة ولغة الأم (عن واقع اللغة العربية في بيئتها الاجتماعية والثقافية)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 2014، ص 258.

وينتقل الكلام من مستوى الفصاحة إلى مستوى الدارجة عبر عدة عناصر أهمها اللحن أو التحريف في استعمال القواعد النحوية أو الصرفية أو التركيبية او الدلالية وغير ذلك...، وسنسعى في هذه الورقة إلى الإجابة عن الإشكالات الآتية:

لماذا التمييز والمفاضلة بين اللغة واللهجة؟ وعلى أي أساس علمي تقوم هذه المفاضلة؟ وما جوانب الاتصال بين اللغة العربية الفصحى واللهجة الدارجة؟

وسنسعى إلى الإجابة على هذه الإشكالات استنادا إلى ما ألفه الدكتور عبد العلي الودغيري باعتباره أحد أبرز العلماء الذين ناقشوا جملة من الإشكالات التي تتعلق باللغة العربية وعلاقتها باللهجات. وذلك من خلال الوقوف عند كتابيه (اللغة العربية بين مراحل الضعف والتبعية) وكتاب (لغة الأمة ولغة الأم).

لماذا التمييز والمفاضلة بين اللغة واللهجة؟

الجواب عن هذا السؤال يقتضي تشخيص واقع اللغة العربية خلال القرن التاسع عشر، حيث عانت خلال هذا القرن جمودا وتخلفا أدى بها إلى اتساع الهوة بينها وبين لهجاتها، فاستغل ذلك المحتل الغربي هذه الهوة استغلالا قويا من أجل شن حملات شرسة ضد اللغة العربية الفصحى، ملصقين بها شتى أنواع نعوت التخلف والتقهقر، واعتبروها غير صالحة للعصر الراهن، وشجعوا في مقابل ذلك استعمال اللهجات المتفرعة عنها، مع دعواتهم الملحة على جعل اللهجات تحتل مكانة اللغة الفصحى، أي رفع المستوى الثاني للغة ليقوم مقام المستوى الأول. من هنا بقي التمييز والمفاضلة بين اللغة واللهجة رغم خروج المحتل من جل البلدان العربية، وبذلك يمكن القول إن «الغزو الثقافي واللغوي ما يزال في أوج ازدهاره وعنفوانه وقوته وتأثيره، وكل هؤلاء الذين نراهم اليوم يهتفون ياسم (العاميات واللهجات) في عالمنا العربي، ويطالبون بإلغاء الفصحى أو إخراجها من كل المجالات الحيوية وحصرها في زاوية الاستعمال الديني، هم بلا شك ولا ريب من الواقعين – بشكل أو بآخر-تحت تأثير هذا الغزو الثقافي الأجنبي»[1].

على أي أساس علمي تقوم هذه المفاضلة؟

إن المتأمل لأصل المفاضلة بين اللغة واللهجة سيجد أنها مفاضلة لا تقوم على أسس علمية رصينة؛ مفاضلة يثيرها دعاة الدراجة الذين لا يتقنون التكلم بالفصحى، بل يكنون لها كل مظاهر الحقد

1- الودغيري، عبد العلي، اللغة العربية بين مراحل الضعف والتبعية، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى 1434هـ-2013م، ص 186.

والكراهية بسبب جهلهم لها ونفورهم منها، وغالبا ما تكون هذه الفئة من خريجي المعاهد والمدراس الأجنبية، إذ لو «تفحصت مليا أمر هؤلاء (المناضلين) الذين يرفعون أصواتهم من داخل الأوطان العربية – من حماة العامية الدارجة- لوجدتهم في غالبيتهم العظمى من خريجي المدارس الأجنبية في الداخل أو الخارج، وأكثرهم لا يعرفون من العربية إلا وجهها اللهجي الدارج على الألسن الذي تعلموه بالصدفة في الشارع أو البيت لا في المعاهد والمدارس والأكاديميات. ولا علم لهم بالفصحى إلا ما سمعوه عن أساتذتهم في تلك المدارس والجامعات الأجنبية أو ما قرأوه في كتابات أعداء العربية والحاقدين عليها أو الجاهلين بها»[1]، والأخطر في الأمر إذا صعد هذا النوع من الدعاة إلى استعمال الدارجة وتفضيلها عن الفصحى -تفضيلا في نظرنا خال من الأسس العلمية-إلى مراكز السلطة أو القرار أو مجالس التعليم أو وزارته.

ما جوانب الاتصال بين اللغة العربية الفصحى واللهجة الدارجة؟

تناول مجموعة من العلماء والباحثين في مجال اللغة عموما واللغة العربية خصوصا، إشكالية العلاقة بين اللغة العربية الفصحى والدارجة، من خلال إبراز بعض جوانب الاتصال والانفصال بينهما.

ويُعد الدكتور المغربي عبد العلي الودغيري من أبرز هؤلاء العلماء الذين تطرقوا إلى هذه الإشكالية، فقد ذهب في كتابه (اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية) إلى كشف النقاب عن بعض جوانب الاتصال والانفصال بين اللغة العربية الفصحى ولهجاتها المعاصرة. وسنبين ذلك كالآتي:

جوانب الاتصال.

يبرز الدكتور عبد العلي الودغيري في كتابه (اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية) أن علاقات الاتصال بين اللغة العربية الفصحى واللهجة الدارجة أكثر من علاقات الانفصال بينها، مركزا في بيان ذلك على مظهر واحد يجسد جانبا من جوانب الاتصال بين الفصحى ولهجاتها، وهو الجانب المعجمي، مبينا أنواع الرصيد المعجمي الذي تشترك فيه العربية الفصحى ولهجاتها المعاصرة، أبرزها النوع المرتبط بالرصيد المشترك الثابت في كل لغة ولهجة.

1- المصدر نفسه، ص 186.

ويرتبط هذا النوع عند الودغيري بالرصيد المعجمي الثابت والمستمر، حيث تشترك فيه كل اللهجات على اختلافها، واللغة العربية الفصحى. واعتبر هذا الرصيد بمثابة النواة المعجمية الصلبة الثابتة في اللغة التي تنتقل من جيل إلى آخر، إذ هو «الذي يؤمن استمرارية التفاهم والتواصل بين سائر مستعمليها على اختلاف لهجاتهم، ورغم كل التحولات التي تطرأ على تلك اللهجات، فيضمن بذلك بقاء هذه اللغة واستمرارها، كما يضمن – باستمرارها- وجود تلك العلاقة الاتصالية بين اللهجات والفصحى، ووجود مثل هذه القاعدة المعجمية العامة المكونة من نواة صلبة من المعجم المشترك بين الفصحى وجميع لهجاتها، لا تنفرد به العربية وحدها، لكنه أمر موجود أيضا في سائر اللغات الأخرى»[1].

وقد أشار الودغيري إلى بعض مظاهر الرصيد المعجمي الثابت بين اللغة العربية الفصحى والدارجة من ذلك أسماء أعضاء جسم الإنسان (رأس – شعر – وجه – ظهر...)، وأسماء ما يحيط بالإنسان من طبيعة نحو (سماء – تراب – أرض – رمل...) وغير ذلك من الألفاظ...، ومن ثم يكون هذا النوع من الألفاظ «تجده ثابتا ومشتركا بين سائر اللهجات العربية، وهو من الرصيد الوظيفي الأساسي الذي يربط الفصحى بكل لهجاتها ومنها اللهجة المغربية، وهو لا يُعد بالعشرات بل بالمئات»[2].

جوانب الانفصال

أبرز الدكتور الودغيري في سياق حديثه عن جوانب الانفصال بين اللغة واللهجة أن أكثر الكلمات قابلية للتغير وأشدها عرضة للاختلاف بين اللهجات بعضها مع بعض، وبين اللهجات والفصحى هي أسماء الأدوات والآلات والأواني، والألبسة، والبضائع التجارية والمصنوعات، وأسماء الأدوية والاصطلاحات التقنية... التي تختلف من مكان لآخر، وأكد أن «مما يبتعد بالألفاظ والتراكيب اللهجية عن الفصحى العربية: أمران أساسيان:

أولهما: كثرة التحريفات والتغيرات الصوتية والصرفية التي تطرأ على الكلمات ذات الأصل العربي حتى ليصعب في بعض الحالات ردها إلى هذا الأصل.

والثاني: تهجين اللغة ومزج تراكيبها بكثرة الدخيل والأعجمي»[3]. وقد فصّل الدكتور الودغيري في بيان مظاهر التحريفات والتغيرات سواء الصوتية أو الصرفية مبرزا في ذلك عدة أمثلة[4] توضح هذا

1- الودغيري، عبد العلي، اللغة العربية بين مراحل الضعف والتبعية، ص 190.
2- الودغيري، عبد العلي، لغة الأمة ولغة الأم، ص 260.
3- الودغيري، عبد العلي، اللغة العربية بين مراحل الضعف والتبعية، ص 209.
4- ينظر: المرجع السابق، ص 209 وما بعدها.

التحريف والتغيير والتهجين... وغير ذلك من العناصر التي تعكس مظاهر انفصال بين اللغة العربية الفصحى واللهجات المتفرعة عنها.

خاتمة:

نخلص مما سبق إلى عدة نقاط أساسية، نعرضها كالآتي:

تعايش اللغة العربية مع اللهجات المتفرعة عنها، باعتباره أمرا طبيعيا. شريطة ألا تتسع الهوة بينهما اتساعا قد يؤدي إلى الانفصال أو الاستقلال.

إن التمييز والمفاضلة بين اللغة واللهجة لا يقوم على أسس علمية رصينة بل هو من مخلفات المستعمر الذي كان يهدف إلى تشجيع اللهجات والعاميات من أجل إضعاف اللغة العربية الفصحى. وقد ورث عنهم هذا التمييز والمفاضلة مجموعة من الدعاة -الذين درسوا في المدارس الأجنبية والذين لا يفقهون شيئا في اللغة الفصحى-إلى تشجيع اللهجة الدارجة.

إبراز الدكتور الودغيري أن من جوانب الاتصال بين اللغة العربية الفصحى واللهجات اشتراكهما في الرصيد المعجمي الثابت.

تأكيد الدكتور الودغيري على كون السبب الرئيس في الانفصال بين اللغة العربية الفصحى واللهجات يتجلى أساسا في كثرة التحريفات والتغيرات الصوتية والصرفية التي تطرأ على الكلمات ذات الأصل العربي من جهة، ثم تهجين اللغة ومزج تراكيبها بكثرة الدخيل والأعجمي من جهة ثانية.

البيبليوغرافيا:

الودغيري، عبد العلي، اللغة العربية بين مراحل الضعف والتبعية، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى 1434هـ-2013م.

الودغيري، عبد العلي، لغة الأمة ولغة الأم (عن واقع اللغة العربية في بيئتها الاجتماعية والثقافية)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 2014.

التعدد اللغوي واللهجي بالمغرب وإشكاليات الهوية

إدريس شريفي علوي [1]

مقدمة

يعد موضوع العلاقة بين اللغة أو اللهجة من جهة والهوية من جهة ثانية من أهم قضايا السوسيولسانيات، حيث يكون الربط بين اللغة أو اللهجة وبين الهوية، أو بين ما يسمى الوظائف التواصلية والوظائف الترميزية للغة. ولشدة الارتباط بين المفهومين رأى بعض اللسانيين أن الهوية هي وظيفة للغة تنضاف إلى وظيفتها الأدائية والتواصلية[2]. وما يهمنا في هذا البحث هو استجلاء تمظهرات العلاقة بين الهوية والتعدد اللغوي واللهجي في جغرافية محددة هي المغرب. ولما كان المغرب دولة متعددة اللغات واللهجات كان ذلك مفتاحا لرسم حدود إشكالية البحث التالية: ما تأثير التعدد اللغوي واللهجي في المغرب على الهوية الوطنية؟ وتتفرع هاته الإشكالية إلى مجموعة من الأسئلة الفرعية من قبيل: ما المقصود بالتعدد اللغوي واللهجي والهوية؟ ما اللغات واللهجات التي تؤثث الفضاء اللغوي المغربي؟ ما الإشكاليات الهوياتية الناجمة عن وضع التعدد هذا؟ أسئلة وأخرى سنحاول الإجابة عنها من خلال محاور هاته الورقة المختصرة.

مفاهيم التعدد اللغوي واللهجي والهوية:

إن التفكير المنهجي يستدعي منا قبل كل شيء الوقوف عند مفاتيح هذه العلاقة بين عناصر الإشكالية، ونعني مفهومي الهوية (identité) والتعدد اللغوي واللهجي ((multilinguisme dialectal/ ونبدأ بمفهوم التعدد اللغوي الذي يعرفه محمد الأوراغي قائلا: «التعدد اللغوي المقابل العربي للفظ الأجنبي ((multilinguisme وهو يصدق على الوضعية اللسانية المتميزة بتعايش لغات وطنية متباينة في بلد واحد. إما على سبيل التساوي إذا كانت جميعها لغات عالمة كالألمانية والفرنسية والإيطالية في الجمهورية السويسرية، وإما على سبيل التفاضل إذا وجدت لغات عالمة كالعربية بجانب لغات

1- مبرز وباحث في اللسانيات التطبيقية، جامعة القاضي عياض –كلية اللغة العربية-مراكش

2- (السعدي)، رشيد، إشكالية الهوية ولغات التعليم بالمغرب: أفريقيا الشرق، ص 26

عامية».[1] وما يلاحظ على التعريف أنه مازج بين التعدد اللغوي والتعدد اللهجي، عندما مثل بالفرنسية والألمانية والإيطالية في الوضع اللغوي السويسري، ومثل بالعربية ولهجاتها في الوضع العربي.

والمجتمع المغربي يعرف ظاهرة التعدد اللغوي واللهجي، ويعدها نقطة قوة وتكامل. وهو ما نجده في الفصل الخامس من الدستور الذي ينص على اعتبار العربية والأمازيغية لغتين رسميتين للبلاد، واعتبار الحسانية جزءا من الهوية الثقافية للمغرب تعمل المؤسسات والأفراد على حمايتها، علاوة على اعتبار الدستور اللغات الأجنبية لغات علم وانفتاح وجب تعلمها وتعايشها مع اللغات الرسمية.[2]

هذا عن مفهوم التعدد اللغوي، أما التعدد اللهجي فيعني استخدام لهجات مختلفة في مجتمع واحد. والمغرب بلد التنوع اللهجي في شقيه العربي والأمازيغي، إذ نجد نوعيات الأول ممثلة في لهجة الشمال والجنوب، والشرق، والغرب وغيرها من النوعيات اللهجية. كما تتفرع الثانية إلى لهجات محلية هي ترفيت وتشلحيت وتسوسيت.

أما الهوية فهي من المفاهيم العسيرة الإحاطة، ومرد ذلك إلى تعدد المستويات التي تحدد المفهوم. لكن لا بأس أن نقف عند الدلالة اللغوية للكلمة ونحاول بعد ذلك أن نرصد مستويات الدلالة الاصطلاحية ومشروع تعريف للهوية.

الهوية في اللغة مشتقة من الضّمير هو. أما مصطلح «الهو هو» المركب من تكرار كلمة هو، فقد تمّ وضعه كاسم معرف بأل ومعناه ((الاتحاد بالذات)). ويشير مفهوم الهوية إلى ما يكون به الشيء «هو هو»، أي من حيث تشخصه وتحققه في ذاته، وتمييزه عن غيره؛ فهو وعاء الضمير الجمعي لأي تكتل بشري، ومحتوى لهذا الضمير في الوقت نفسه، بما يشمله من قيم وعاداتٍ ومقوّمات تكيف وعي الجماعة وإرادتها في الوجود والحياة داخل نطاق الحفاظ على كيانها.[3]

1- (الأوراغي)، محمد، التعدد اللغوي وانعكاساته على النسيج الاجتماعي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، منشورات كلية الآداب بالرباط، ط1، 2002، ص 11

2- انظر الفصل الخامس من الدستور المغربي 2011

3- (عوبدة)، رشيد، سؤال الهوية بين دور العائق وسؤال الإقلاع، http://maaber.50megs.com/issue_october12/editorial.htm،

ويعرف قاموس لاروس ((larousse الهوية بكونها: «خاصية مستمرة وأساسية للفرد أو الجماعة، وتعني الهوية الاجتماعية قناعة الفرد بانتمائه إلى مجموعة اجتماعية، قناعة مبنية على الإحساس بالانتماء الجغرافي، اللغوي والثقافي المشترك، وما يستتبع ذلك من ممارسات خاصة».[1]

وبتحليلنا لهذا التعريف يتبدى جليا أن الهوية تتحدد عبر مفهوم مطابقة النموذج الجماعي. ومادام مفهوم الهوية يستدعي مفهوم الغيرية فيمكننا القول: إن الهوية تتشكل عبر مرحلتين رئيسيتين هما: مرحلة الهوية كمطابقة مع الذات، ومرحلة الهوية كتفرد.

وهنالك اختلاف في تحديد مستويات الهوية، فهناك من يحددها عبر الجغرافيا والشعب والذاكرة التاريخية المشتركة والثقافة الشعبية، وهناك من يضيف عناصر أو يقصي أخرى. لكن يمكن تقديم المستويات التالية في الرسم التوضيحي أدناه والتي يمكن أن تختزل في طياتها كل أبعاد ومبادئ الهوية:[2]

العلاقة الإشكالية بين الهوية والتعدد اللغوي بالمغرب:

تطرح العلاقة الإشكالية بين الهوية واللغة/اللهجة بالمغرب لأسباب جغرافية وثقافية تتعلق أساسا بالازدواجية الإثنية وبمسألة الإلحاق الثقافي أثناء فترة الاستعمار. لكن الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري في كتابه السياسة اللغوية بالبلاد العربية يدعو إلى ضرورة الابتعاد عن الإثنية أو الترابية الضيقة والأصولية، لأننا كلما ابتعدنا عن ذلك فسنحقق مشروعا ثقافيا وحضاريا عاما، ومشروعا مجتمعيا سياسيا واقتصاديا قد تنخرط فيه أكثر من جنسية[3]. فالأمم التي حققت التقدم والتطور كان مدخل اللغة مدخلا رئيسا في منجزها. أما الجنوح داخل المغرب إلى نموذج لغوي واحد من بعض الأصوليين فإن ذلك لعمري يهدد السلم الاجتماعي أولا ويجعل البلاد تتخبط في مدارك التخلف الفكري والاقتصادي. إن تطبيق نموذج هوياتي واحد أمر مستحيل في بلاد فتحت أحضانها تاريخيا لكل تنوع وتعدد ثقافي ولغوي يسهم في حفظ التعايش والتآخي.

1- (السعدي)، رشيد، المرجع المذكور، ص 26

2- المرجع السابق، ص39

3- (الفاسي الفهري)، عبد القادر، السياسة اللغوية بالبلاد العربية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 1 2013، ص 36

وفي محاولة منه للإجابة عن سؤال: هل التعدد اللغوي واللهجي خير أم شر؟ يجيب الدكتور الفاسي الفهري أن التعدد هو خير.[1] وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم. إن في ذلك لآيات للعالمين».[2]

لكن الانتقاد الأكثر حدة الموجه للسياسة اللغوية بالمغرب هو أنها تكرس التبعية اللغوية، مما ينتج عنه تبعية ثقافية تسم الهوية المغربية بما ليس فيها. وتطمس معالم هوية ثقافية متعددة المشارب غير متنصلة من أصولها الضاربة في أعماق التاريخ.

ويذهب الدكتور الفاسي الفهري في كتابه أزمة اللغة العربية في المغرب إلى أن التعدد سمة إيجابية وسياسة لغوية معقولة وناجعة، ولا يمكن الاستعاضة عنها بسياسات لغوية احتكارية تفيد منها نخب معينة بدعوى أنها المدافعة عن اللغات الأجنبية وثقافتها وقيمها، وحتى المنظمات الدولية مثل اليونسكو فهي تشيد بسياسة التعددية اللغوية، ودورها في بناء الهوية الوطنية بعيدا عن اعتماد اللغة القاتلة linguicide.[3]

المستويات اللغوية/اللهجية والهوياتية بالمغرب:

يميز غرينبرغ بين ثلاثة مستويات لغوية وهوياتية يمكن توضيحها في الرسم التالي:[4]

فالعامية والأمازيغية تشكلان اللغة الأم للهوية الفردية وتحيلان على ما يمكن تسميته بالهوية العميقة. أما العربية فهي لغة الهوية الوطنية والممارسة السياسية والتي وجدت لنفسها موقعا متميزا لعدة عوامل نجملها فيما يلي:

<u>الشرعية الدينية</u>: تتحدد من خلال الوظيفية التعبدية أو الروحية فهي لغة الكتاب المقدس

<u>الشرعية المعرفية</u>: تتحدد بوصفها لغة تراث حضاري وتوحيدي بين الأقطار العربية

<u>الشرعية الإديولوجية</u>: يؤكد المدافعون عن التعريب أنه مشروع يواجه الاستلاب اللغوي والهوياتي للغات الأجنبية.

1- نفسه، ص ص 38 – 39

2- سورة الروم، الآية: 22

3- (الفاسي الفهري)، عبد القادر، أزمة اللغة العربية في المغرب، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 5، 2010، ص 61

4- (السعدي)، رشيد، المرجع المذكور، ص 39

الشرعية الوطنية: من خلال دورها في ترميز الوحدة الوطنية.

أما المستوى الثالث من المستويات اللغوية والهوياتية حسب غرينبرغ فهي الفرنسية لغة المعاصرة والاغتراب التي تسمح بالشعور بالاختلاف وتحيل على مفهوم الأمة العصرية.

التعدد اللغوي إلغاء لفكرة الهوية الجامعة:

بعد الاستقلال الذي عرفه المغرب سنة 1956 ظهرت مجموعة من التيارات الفكرية التي أرجعت أسباب التخلف إلى تبني لغة الأجنبي، لذلك دعت إلى ضرورة تبني اللغة الواحدة وفق مبدأ التأحيد من أجل التوحيد l'uniformisation pour l'unification، فاللغة الموحدة هي السبيل الأنجع لجمع شتات المجتمع المغربي. وكان طبيعيا أن تفرض النخب السياسية التي أمسكت بزمام البلاد نموذجها التأحيدي التوحيدي ممثلا في اللغة العربية. وقد تزامن ذلك مع مد للقومية العربية التي بحثت عن المشترك بين الأقطار العربية.

لكن هاته الدعوة وهذا التدبير هو الذي سيتسبب لاحقا في العداء المبطن للغة العربية، لأنه غيب المكون الأمازيغي ولغته في صورة واضحة لتهميش أحد مكونات المجتمع المغربي. كما غيب اللهجة المغربية التي تشكل الهوية العميقة كما أسلفنا الذكر. وهذا وضع شاذ ويضرب الهوية المغربية المتنوعة خصوصا وأن هنالك علاقة تاريخية بين العربية والدارجة ترجعهما، حسب، فيرغسون، إلى أصل تاريخي واحد.[1] كما أن تلك الدعوة المتعصبة هي ما حذت ببعض الباحثين الأمازيغ إلى إرجاع سبب الغياب التام للغة الأمازيغية كلغة تدريس أو موضوع للتدريس لمدة عقود هو راجع أساسا لسوء التدبير اللغوي بعد استقلال البلاد.

لقد أشرنا آنفا إلى أن المغرب بلد التعدد الثقافي واللغوي ولا يمكن بأية حالة الحديث عن هوية جامعة ملغية للهوية المجاورة.

ويذهب الأستاذ محمد بودويك في كتابه « أحوال اللغة والتعليم: المركب الغرقان» إلى أنه لا بأس بتعلم الفرنسية والصينية والإسبانية والإنجليزية والهندية وغيرها من اللغات. فبمعرفتها تغتني اللغة

1- الكعاك، ابراهيم، محاضرات الفصل الثاني، ماستر اللهجات العربية، كلية الآداب ابن طفيل، الموسم الجامعي: 2017/2016

العربية وتتحرر من أثقال البلاغة المترهلة والقداسة المفتراة. لكن ذلك يجب ألا يكون على حساب اللغة الأم أي اللغة الوطنية.[1]

خاتمة:

تأسيسا على ما سبق، يمكن القول إن ما يسم الوضعية اللغوية في المغرب هو وجود تنافس حاد وصراع مرير بين مكوناتها، الشيء الذي يجعل من تدبيرها تحديا يصعب تجاوزه ويؤثر على الهوية الوطنية، ويبدو هذا جليا في سياستنا اللغوية التي يطبعها الاضطراب والإقدام والتراجع، مما ينجم عنه تكريس التبعية اللغوية، إذ رغم إقرار الدستور برسمية اللغتين العربية والأمازيغية، نجد الفرنسية هي اللغة الطاغية، وهي التي يتم التمكين لها في مراكز القرار ومن خلال المدارس التي ترتبط بالرهبان ومدارس البعثات الثقافية والمدارس الخصوصية.

إن التعدد اللغوي واللهجي ظاهرة صحية، يسهم في توسيع دائرة التفكير والانفتاح على الثقافات، فهو معطى حضاري مهم للتقدم ومواكبة التطور العلمي والتكنولوجي، لذلك ينبغي استثماره والاستفادة منه، وتدبيره بطريقة علمية اعتمادا على آراء المتخصصين، بدل الركوب عليه بغية تحصيل الأغراض الإيديولوجية.

البيبليوغرافيا

الأوراغي، محمد، التعدد اللغوي وانعكاساته على النسيج الاجتماعي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، منشورات كلية الآداب بالرباط، ط1، 2002

بودويك، محمد، أحوال اللغة والتعليم: المركب الغرقان، دار أبي رقراق، ط 1، 2014،

السعدي، رشيد، إشكالية الهوية ولغات التعليم بالمغرب: أفريقيا الشرق، ط1، 2015

الفاسي الفهري، عبد القادر، السياسة اللغوية بالبلاد العربية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 1، 2013

الفاسي الفهري، عبد القادر، أزمة اللغة العربية في المغرب، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 5، 2010

1- (بودويك)، محمد، أحوال اللغة والتعليم: المركب الغرقان، دار أبي رقراق، ط 1، 2014، ص 58

الكعاك، ابراهيم، محاضرات الفصل الثاني من ماستر اللهجات العربية والأدب الشفهي بالمغرب، 2016/2017.

(عوبدة)، رشيد، سؤال الهوية بين دور العائق وسؤال الإقلاع، http://maaber.50megs.com/issue_october12/editorial.htm

قول في اللغة واللهجة؟

محجوبي سعيد[1]

توطئة:

الإشكال: ما الفرق بين اللهجة واللغة؟ لماذا التمييز والمفاضلة بينهما؟ وعلى أي أساس علمي تقوم هذه المفاضلة؟ لماذا يتكلم «الفاعل السياسي» عن اللغة الرسمية ويشترط شروطا لإلغاء اللغات الأخرى بدعوى أنها لهجات؟ وبتعبير أدق، ما دخل السياسة في هذا التمايز بين كل ما يتكلم به الإنسان؟ ما حظ البحث العلمي الأكاديمي الرصين في السياسة اللغوية في بلدان شمال إفريقيا والشرق الوسط؟

إن الإجابة عن الإشكال أعلاه تقتضي منا أمر مفاده أن الفرق بين اللغة واللهجة حاصل لا مشاحة في ذلك، من هنا نرى أن اللهجة ما هي إلا ازياح عن اللغة لما لا تفريع عنها وما دام الأمر كذلك، لتكون اللغة هي المحدد الأول لأي تواصل جامع. ولقد صح قول ابن جني: اللغة أصوات يعبر بها كل أقوام عن أغراضهم.

قول في اللغة واللهجة:

الحق أننا لا نستطيع أن نفكر في هذه السيادة الفارسية في الحيرة أو هذه السيادة الرومية في أطراف الشام، فقد كانت هناك أسر عربية تمثل هذه السيادة، وكانت لهذه الأسر ضروب من السلطان، ولكن هذه الأسر لم تكن فيما يظهر حجازية، ولم تكن بيئاتها بيئات عربية خالصة، إنما كانت بيئات مختلطة أقرب إلى الأعجمية منها إلى أي شيء آخر.[2]

ومن هنا نرى أن ازياح اللهجة عن اللغة رهين بالتأثير الحاصل مع قبائل غير عربية، الأمر الذي خلق لنا ثنائية لغة ولهجة.

1- باحث في سلك الدكتوراه بكلية الآداب بتطوان-المغرب، بنية النص العربي القديم «تخصص لسانيات».
2- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (16/ 267)

لهذا لما جاء الإسلام عمت هذه السيادة وسار سلطان اللغة واللهجة مع السلطان الديني والسياسي جنبًا إلى جنب»[1]

وكان المرحوم «مصطفى صادق الرافعي»، قد تعرض لهذا الموضوع وبحث فيه قبل «الدكتور طه حسين»، في كتابه: «تأريخ آداب العرب»، الذي طبعه سنة «1911م»، فذهب مذهب الأسلاف في أن العربية بدأت ب»إسماعيل» فلما خرج أولاده من ديارهم وانشعبت قبائلهم، تنوعت لهجاتهم، وتباينت ألسنتهم، حتى ظهرت قريش من بينهم، فأخذت وأعطت، وهذبت الألسنة واستخلصت منها أعذبها وأسماها، ثم لا تزال تهذب في اللغة وتشذب حتى بلغت بها الكمال عند ظهور الإسلام، بنزول الوحي بها.[2]

علاوة على ذلك تعد لغة قريش إذن هي هذه اللغة العربية الفصحى، فرضت على قبائل الحجاز فرضًا لا يعتمد على السيف وإنما يعتمد على المنفعة وتبادل الحاجات الدينية والسياسية والاقتصادية. وكانت هذه الأسواق التي يشار إليها في كتب الأدب، كما كان الحج، وسيلة من وسائل السيادة للغة قريش»[3].

وخلاصة رأي «الدكتور طه حسين» أن عربية قريش هذه، التي نزل بها القرآن الكريم، إنما سادت قبيل الإسلام، ولم تكن سيادتها تتجاوز الحجاز.

إذ يقول: «فالمسألة إذن هي أن نعلم: أسادت لغة قريش ولهجتها في البلاد العربية وأخضعت العرب لسلطانها في الشعر والنثر قبل الإسلام أم بعده؟[4]

أما نحن فنتوسط ونقول: إنها سادت قبل الإسلام حين عظم شأن قريش وحين أخذت مكة تستحيل إلى وحدة سياسية مستقلة مقاومة للسياسة الأجنبية التي كانت تتسلط على أطراف البلاد العربية. ولكن سيادة لغة قريش قبيل الإسلام لم تكن شيئًا يذكر ولم تكد تتجاوز الحجاز. فلما جاء الإسلام عمت هذه السيادة وسار سلطان اللغة واللهجة مع السلطان الديني والسياسي جنبًا إلى جنب».[5]

1- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (16/ 269). في الأدب الجاهلي «105».
2- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (16/ 269).
3- - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (16/ 268).و في الأدب الجاهلي «106 وما بعدها».
4- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (16/ 268).
5- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (16/ 269). 1 في الأدب الجاهلي «105».

اللغة واللهجة: اختلاف أم ائتلاف؟

تعد اللهجة في الاصطلاح العلمي الحديث: مجموعة من الصفات اللّغوية التي تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة، وبيئة اللهجة جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات، لكل منها خصائصها، ولكنها تشترك جميعا في مجموعة من الظواهر اللّغوية.

وتلك البيئة الشاملة التي تتألف من عدة لهجات هي التي اصطلح على تسميتها باللّغة؛ فالعلاقة بين اللّغة واللهجة هي العلاقة بين العام والخاص، فاللّغة تشتمل على عدة لهجات، لكل منها ما يميزها، وجميع هذه اللهجات تشترك في مجموعة من الصفات اللّغوية التي تؤلّف لغة مستقلة عن غيرها من اللّغات.

ويعبّر القدماء عما نسميه الآن باللهجة بكلمة «اللّغة» كثيرا، فيشير أصحاب المعاجم إلى لغة تميم ولغة طي ولغة هذيل، وهم يريدون بذلك ما نعنيه نحن الآن بكلمة «اللهجة» وقد يعبّرون بكلمة «اللّسان» وهو التعبير القرآني: «وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ» [1]

والفرق بين لهجة وأخرى هو بعض الاختلاف الصوتي في غالب الأحيان، فيروى لنا مثلا أن قبيلة تميم كانوا يقولون في «فزت» «فزد»، كما يروى أن «الأجلح» وهو الأصلع، ينطق بها «الأجله» عند بني سعد.

وتشترك لهجات اللّغة الواحدة في الكثرة الغالبة من الكلمات ومعانيها.[2]

واللّغة العربية هي لغة جزيرة العرب، ولكن القبائل العربية المتعددة كان لكل قبيلة منها منازلها، ولها كيانها المستقل الذي يعزلها عن غيرها بما لها من عادات وتقاليد تنمو وتتطور، فأدى هذا إلى نشأة اللهجات العربية التي تتميز كل منها بصفات خاصة.[3]

خاتمة:

سهوة الكلام تدفعنا إلى القول: إن البرهان القاطع قائم على أن اختلاف اللغة واللهجة كان حقيقة واقعة بالقياس إلى عدنان وقحطان، يعترف القدماء أنفسهم بذلك؛ كما رأيت أبا عمرو بن العلاء، ويثبته البحث الحديث».

1- سورة إبراهيم: الآية 4

2- ينظر كتاب «في اللهجات العربية» للدكتور إبراهيم أنيس، الطبعة الخامسة ص 16 – 18

3- نزول القرآن على سبعة أحرف ص: 4 وما بعدها

لتختلفِ اللغات، لتتباين اللهجات، ليكن البعد بين اللغات واللهجات مثل ما بين مطلع الشمس ومغربها، ليقم على اختلافها سبعون برهاناً، لتكن براهينها أجلى من الشمس في رونق الضحى. والذي لا يهتدي المؤلف إلى نفيه سبيلاً هو قيام لغة أدبية باسطة أشعتها في كل ناحية، ولا سيما بعد أن كانت قَدُومه القاسية إحدى الضاربات في أساس نظرية العزلة العربية.[1]

مزايا اللسان العربي:

قدرة على استيعاب ما جاء في الكتاب المفارق والمؤسس القرآن من تشريع ومواعظ، وقصص وأخبار، وعلوم ومعارف بخصائص هي:

- صوتيات سهلة وسمحة وميسورة.

- تنوع الحرف صفات تجعل من الكلمة العربية قيمة تعبيرية ودلالية واسعة.

- مفردات شاملة وواعية وغزيرة وفياضة

- قوانين تصريفية واشتقاقية تكسب المفردة خصوبة ونماء؛ فتأخذ من» كتب «مثلا كلمات عدة، تختلف عنها في الدلالة طبقا لقوانين يغلب اطرادها

- الإعراب سمة رائعة وقرينة من القرائن الهامة في إبراز المعنى.

- الطاقة البيانية غير محدودة. انتهى

البيبليوغرافيا

القرآن جل منزله وعلا.

في الأدب الجاهلي، طه حسين، الطبعة الثالثة، مطبعة فاروق، محمد بن عبد الرحمن محمد 1352 /1933م.

المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، دار الساقي، الطبعة الرابعة 1422هـ/ 2001م، عدد الأجزاء: 20.

1- موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين (8/ 134).

موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، (المتوفى: 1377 هـ)، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، الناشر: دار النوادر، سوريا، الطبعة: الأولى، 1431 هـ -2010م، عدد الأجزاء: 15

نزول القرآن على سبعة أحرف، مناع بن خليل القطان (المتوفى: 1420هـ)، مكتبة وهبة – القاهرة، الطبعة: الأولى، 1411 هـ -1991م، عدد الأجزاء: 1

«اللهم إنا نسألك السداد في القول والعمل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.»

الوضعُ اللُّغويُّ بِالمغرِب بيْن الوَاقِع والمأْمُول

أشرف اقريطب[1]

مدخل عام:

لعلّ الرغبة في اختياري لهذا النّوع من المواضيع، جاء نتيجة ما لاحظته مؤخرًا من دعاوى لإحلال الدارجة مكان الفُصحى من قِبل أُناس دخلاء على المجال اللّغويّ خاصة السوسيولسانيّ منه، فحركتني أناملي لأكتب مقالًا بحثيًا علميًّا؛ أُفنّد فيه بالدّراسة والتّحليل وبالنظرة المُتبصّرة مثل هذه الدعوات الإيديولوجيّة التي تزيد وضع العربيّة تأزمًا، في مُقابل تقدّم اللّغات الأجنبيّة وقطعها النّهائي مع هذه «التفاهات» السُلطويّة / العشوائيّة والارتجاليّة.

تبحث هذه الدّراسة إذن، في الوضع المتأزم للّغة العربيّة بالمغرب العربيّ عمومًا وبدولة المغرب على وجه الخُصوص، والذي أسهمت فيه سياسات لغويّة لنخب سياسية واقتصادية وأدبية وفكرية فرنكوفونية[2]، وعززتها أيضًا تشريعات وقوانين دستوريّة تُقرّ بثلاثية اللّسان المغربيّ، لتصبح العربيّة لغة الخطابة، والفرنسيّة لغة النخبة والمصلحة والقرار، والعاميّة لغة الشارع والتخاطب اليومي. ويُركزّ البحث على إبراز مدى تعالق العربيّة بالعاميّة؛ أي بحث العلاقة بين اللّغة واللّهجة، وافتراض أنّ الأخيرة تمتح من الفُصحى وليست مُعادية لها كما يُزعم. وكذا محاولة تحليل السوق اللّغويّة بالمغرب والتي تعرفُ تراتبية قلّ نظيرها بباقي البُلدان، نظرًا لعوامل الاستعمار والعولمة، ومُعرجًا للحديث عن مسألة شائكة ظهرت مؤخرًا بالمغرب مفادها أنّ الدارجة تصلح أن تكون لغة التّدريس، مُبينًا ضعف هذا الطرح أمام تحديات فوق لغويّة كما سنرى. ومُختتما بتوصيات الهدف منها تشجيع القائمين على اللّغة العربيّة على بَذْلِ مزيد من المجهودات لترقية اللّغة العربيّة لتصبح لغة العلم بدل الاتّكاء على كرسي والقول إنّ العربيّة لغة المُقدس وأنها لن يمسها إنس ولا جان!

1- باحث في اللسانيات والإعداد اللغوي، جامعة ابن طفيل/ القنيطرة

2- هي سياسة اقتصاديّة وثقافيّة تعمل على تأخير التجمع الاقتصادي الإقليمي وما دون الإقليمي في إفريقيا، كما تُسهم عمليًا في تهميش وتبخيس العربيّة في بورصة القيم اللّغوية المهيمنة، معتمدة على ثغرات إعادة التّعريب وصعوباته.

في خضم هذه المعطيات، آن لنا أن نتساءل؛ عن مصير صراع اللُّغات بالمغرب، هل هو صراع إيديولوجي في الأصل أم صراع أفضلية لُغة على أخرى؟ وهذا مُستبعد، فما دامت اللّغة تؤدي الغرض الذي من أجله وُلدت ألا وهو التواصل فلا مجال للحديث عن لغة أفضل من أخرى. فقط الاستعمال والشيوع هو الذي يحكم ببقاء اللّغات من عدمها (موتها).

ماذا عن دور القائمين على الشأن اللّغويّ بالمغرب للخروج من أزمة الصّراع اللّغويّ؟ هل يكفي وجود مؤسسات (مكتب تنسيق التّعريب بالرباط، جمعية حماية اللّغة العربيّة، معهد الأبحاث والدّراسات للتّعريب) بالاسم دون عمل؟ ما السُبل الكفيلة للنهوض باللّغة العربيّة باعتبارها لغة قومية تحفظ لمتحدثيها هويتهم وتراثهم ودينهم وعروبتهم؟ هل جائز لنا بوصفنا مثقفين القول بقدسيّة اللّغة وكف الأيدي عن بحث سبل تطويرها وبلورتها مع عولمة العصر؟

أسئلة وأخرى، نحاولُ في هذه الورقة البحثيّة بمنهج وصفي تحليلي مقاربتها وتفسير خباياها وتعقيداتها، ففي النهاية التعامل مع اللّغة ليس بالأمر السهل، فاللّغة في النهاية ثقافة قبل أن تكون مُجرد أصوات منطوقة.

أولا: بين اللّغة واللّهجة:

إنّ البحث في موضوع اللّغة هو قديم جديد، فقد استأثر موضوع اللّغة باهتمام واسع عند قُدامى اللّغويين العرب، ويُعد ابن جني)ت392 ه(أحد هؤلاء المهتمين بأمور اللّغة الذين تقصوا شؤونها وأبرزوا خصائصها. ولعلّ هذا ظاهر من تعريفه للّغة بأنها «أصواتا يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[1]، والغريب في هذا التّعريف العميق جمعه لكل خصائص المنظومة اللّغويّة، إذ اشتمل التّعريف على أربعة أمور هي: أولا: جعل اللّغة أصوات، أي إمكانية احتفاظ الإنسان باللّغة دون كتابتها، كما أنّ الإنسان تكلّم اللّغة في البداية دون أن يُدونّها.

ثانيا: مسألة التّعبير؛ وهي تأتي من حاجة الإنسان للتّعبير عما يُخالجه من أفكار وأحاسيس مع محيطه الذي يتفاعل معه، لذا فالتّعبير ضرورة إنسانيّة محض. ثالثًا: اللّغة ظاهرة اجتماعيّة؛ لا وجود للُغة الفرد في انعزال عن الآخرين، ممّا يُؤكد مسألة حتمية أن اللّغة ظاهرة اجتماعية باستحقاق، وهذا ما يُبرز دور اللّغة باعتبارها فعلا اجتماعيا يُساعد في إنتاج الأنظمة الاجتماعيّة

1- أبو الفتح عثمان ابن جني، **الخصائص**، تحقيق: محمد علي النجار (القاهرة، دار الكتب المصرية، 2006)، ص33.

والاقتصاديّة وتغييرها، لذا تبقى العلاقة بين اللّغة والواقع علاقة جدليّة (متبادلة). رابعا: اللّغة وسيلة لتحقيق الأغراض؛ إذا كانت اللّغة أصواتا للتّعبير والنُطق، فإنها تستحوذ بذلك على صفة تحقيقها لأغراض المتكلمين بها سواء أكانت هذه الأغراض ماديّة أم معنويّة.

أما مع المحدثين، وأقصد بالمحدثين هنا المدارس اللّسانيّة الحديثة، فكل مدرسة نظّرت وعرّفت اللّغة من منظورها وزاويتها الخاصة، فالمدرسة التوليديّة مع اللّسانيّ نعوم شومسكي (رائد المدرسة التوليديّة) فقد عرّف اللّغة بأنّها «أفضل مرآة للعقل البشري»[1]، فشومسكي يعد أن اللّغة فطرية في دماغ الإنسان، فالطفل يُولد وهو مُزود بملكة لغويّة تجعله قادرًا بسهولة ويسر على اكتساب النسق اللّغويّ المعقد[2] والتّعبير فيما بعد عن حاجياته اللّغويّة. أما سوسير (رائد المدرسة البنيويّة) اهتم ببنية اللغة وبوجهيها الفردي والاجتماعي، وهذا ما يظهر في تعريفه للّغة بأنها «لها جانب فردي وجانب اجتماعي، ولا يمكن تصور أحد الوجهين دون الآخر»[3]، فسوسير ومن معه من المدرسة البنيويّة اهتموا ببنية اللّغة في ذاتها ولذاتها بغض النظر عن السّياق والاستعمال. أما مع مدرسة اللّسانيات الاجتماعيّة بزعامة لابوف وهدسون وغيرهم، فموضوعها الوحيد هو دراسة العلاقة بين اللّغة والهويّة (في أنماطها وأشكالها المختلفة: لغويّة، إثنيّة، دينيّة، سياسيّة، اقتصاديّة،...إلخ). بمعنى أنّ ربط اللّغة بالهويّة هو عملية أيديولوجية (أي مبنية على تصورات اجتماعيّة)؛ أي كلما كانت اللّغة محل نزاع وصراع فإن الدافع والهدف يكون ذا طبيعة «غير لغويّة» (سواء تعلق بالهويّة والسلطة أو غيرهما من العوامل الاجتماعيّة والاقتصاديّة. كما تُركز اللّسانيات الاجتماعيّة في دراستها للّغة على دراسة الظروف الاجتماعيّة والتاريخيّة لنشوء أشكال مختلفة من التعدّديّة اللّغويّة كما سنرى مع الحالة المدروسة (حالة المغْرب).

كانت هذه إذن، بعض التّعريفات للّغة من القُدامى (ابن جني) ومن بعض المدارس اللّسانيّة، ولأن المجال لا يتسع لذكر كل المدارس اللّسانيّة اقتصرتُ على أبرزها؛ وقد وضحت هذه التّعاريف أهمية التّنظير لموضوع اللّغة، فالأخيرة شغلت بال القدماء والمحدثين لطابعها المُعقد أولا، ولارتباطها بمسائل الهويّة والثقافة ثانيًا، ولطرحها مسائل تتجاوز الجوانب اللّسانيّة إلى جوانب سياسيّة وإيديولوجيّة محض.

1- NoamChomsky, Knowledge of Language (New York,Greenwood Publishing Group, 1986), P 1.

2- تأخذ اللّغة بعدها التعقيدي كونها تحوي الجوانب الصوتية والصرفية والمعجمية والدلالية والتداولية، ولا يمكن الفصل بين هذه المكونات.

3- Ferdinand Saussure, Cours De Linguistique Générale (Paris, université de Genève, 1995), P 24.

هذا بخصوص اللّغة، فماذا عن اللّهجة؟

يُطلق عليها في المغرب عدة مُصطلحات، نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر: «دارجة» (لغة شائعة)، «العربيّة المغربيّة»، «عاميّة» (لغة العامّة). وجاء في المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة في مادة لهج أن «اللهجة من لهج لهجا أولع به فثابر عليه واعتاده، فهو لهج ولاهج ولهج الفصيلة بضرع أمه؛ لزمه، واللهجة: اللسان أو طرفه ولغة الإنسان التي جبل عليها فاعتادها، ويقال فلان فصيح اللهجة، وصادق اللهجة، واللهجة طريقة من طرق الأداء في اللغة وجرس الكلام»[1]، ونفهم من هذا، أنّ العرب استعملوا العاميّة للدلالة على مستوى اللّغة العربيّة التي يستعملها عموم الناس. وما العاميّة إلا الوجه الآخر للفُصحى مُحرفًا قليلا أو كثيرا على ألسن الناس.

ونجد حسن ظاظا من الكُتّاب المعاصرين الذين عرفوا العاميّة إلى القول إنّ «تحريف سوقي لألفاظ كانت من قبل عربية صحيحة»[2]، هذا التّعريف إذا افترضنا صحته فهو يحيل إلى أن العاميّة هي كل ما تكلم به عامة الناس في حديثهم سواء باستعمال ألفاظ فصيحة أو غير ذلك، دخيلة أو مُطوّرة، منقولة من العربيّة أو من غيرها من اللّغات.

ويذهبُ إبراهيم أنيس بالقول إنّ «اللهجة في الاصطلاح العلمي الحديث هي مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة. وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات. لكل منها خصائصها، ولكنها تشترك جميعاً في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض، وفهم ما قد يدور بينهم من حديث، فهماً يتوقف على قدر الرابطة التي تربط بين هذه اللهجات»[3]، وتُعرّفها مها محمد فوزي بقولها: «واللهجة ما هي إلا مزيج من لغة عامة تتحدث بها مجموعة من الناس تجمعهم ظروف تاريخية اقتصادية وسياسية ودينية معينة، وتكاد تكون لغة قائمة بذاتها من حيث نظامها العام، ولكنها لا تعتبر لهجة إلا إذا كانت فرعا من لغة عامة»[4].

بشكل عام؛ اللّهجة هي استعمال خاص للّغة بيئة معينة، ولا يكاد ينتشر استعمال لغة، حتى تتعدد لهجاتها، نتيجة ظروف مختلفة جغرافيّة واقتصاديّة واجتماعيّة، وتبقى اللّهجة مجموعة من

1- المعجم الوسيط، القاهرة، (المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1998)، مادة لهج.

2- حسن ظاظا، كلام العرب (بيروت، دار النهضة العربية، 1976)، ص 80.

3- إبراهيم أنيس، **في اللهجات العربية** (القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 2003)، ص 15.

4- مها محمد فوزي معاذ، الأنثروبولوجيا اللغوية (القاهرة، دار المعرفة الجامعية، 2009)، ص 184.

الصّفات اللّغويّة، تنتمي إلى بيئة خاصة ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة. أما اللّغة فهي البيئة الأوسع والأشمل التي تضم عدة لهجات، لكل منها خصائصها، ولكنها تشترك جميعًا في مجموعة من الظواهر اللّغويّة التي تيُسر اتصال أفراد هذه البيئات، بعضهم لبعض. وتلك البيئة الشاملة التي تتألف من عدة لهجات هي التي يُصطلح على تسميتها باللّغة أو اللّسان.

لقد أوْلت اللّسانيات الحديثة اهتماما واسعا لدراسة اللّهجة التي سيتفرع منها فيما بعد ما يُسمى بعلم اللّهجات، وهو فرع من علم اللّغات يهتم بالدّراسة العلميّة للّهجات اللّغويّة ويدرس الاختلافات في اللّغة بالمقام الأول على أساس التوزيع الجغرافي وما يرتبط بها من سمات. لعلّ علم اللّهجات يهتم بمعالجة مواضيع من قبيل اختلاف اثنين من اللّهجات المحليّة ذات أصل مُشترك، وتباينهما الزمني.

نستنتج ممّا سبق؛ أنّ البحث في اللّغة واللّهجة، هو بحث قديم جديد، إذ انصب اهتمام القدامى والمحدثين على دراسة هذين النّوعين، والتي تبقى العلاقة بينهما؛ علاقة بين العام والخاص، وأن اللّهجة شُعبة تتوّلد من اللّغة وتجتمع الظروف الجغرافيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة لتسبب تباعد اللّهجات عن بعضها ثم عن اللّغات التي تفرّعت منها.

من المفيد جدًا، فهم العلاقة بين اللّغة واللّهجة حتى نستطيع تفكيك خيوط الدعاوى المتتالية والممنهجة لإحلال العامية محل الفصحى بالمغرب، فبدون فهم العلاقة القائمة بين اللّغة واللّهجة لن نستطيع تحليل الوضع اللّغويّ بالمغرب التحليل السليم، لذا كانت هذه التفسيرات وسيلة لتبصر ما يجري حاليًا من صراع شرس بين العربيّة الفُصحى ونظيرتها العاميّة.

ثانيًا: مسار وتحوّلات الوضع اللّغويّ بالمغرب:

أ.في طبيعة الصّراع اللّغويّ المُعاصر؛

إنّ الحديث عن موت اللّغات وانقراضها هو في الحقيقة حديث عن ضياع وانقراض أُمّة وضياع ثقافة وهويّة، لا فقط ضياع جهاز اتصالي، وهذا ما يُلاحظه سلمان بونعمان عندما يقول «إذ نلحظ محاولات عديدة لمواجهة تحدي الواحدية اللغوية التي تبشر بها العولمة، التي لا تسعى إلى هيمنة اللغات الغالبة فقط وإنما هيمنة النموذج الثقافي المختزن في رموز الاتصال»[1]. إننا نواجه ونحن نحُلل

1- سلمان بونعمان، **النهضة اللغوية وخطاب التلهيج الفرنكفوني في نقد الاستعمار اللغوي الجديد حالة المغرب** (بيروت، مركز نماء للبحوث والدراسات، 2014)، ص ص 44ـ43.

الوضع اللّغويّ بالعالم العربي جهل الناس بمسألة موت اللّغات، فهم لا يتصورون أنّ اللّغة العربيّة التي تجري على ألسنتهم مُعرضة شأنها شأن اللّغات السابقة لها (كاللّغة البيلاروسية، اللاتينية، الكورية...) للفناء حتى ولو كان فناء تدريجيًا، فهذا سيحدث ما لم تتوفر لهذه اللّغة أسباب البقاء. إنّ العالم الآن أضحى يُولي أهمية وقلقًا كبيرين لمسألة اللّغة، فمثلا فرنسا تُعاني حاليًا أزمة كبيرة جراء فقدانها لمكانتها العلميّة السابقة إذ حلّت محلها اللّغة الإنجليزية.

لعلّ الوضع اللّغويّ بالدول المغاربية خاصة المغرب والجزائر، وضعٌ لغويٌّ بالغ التّعقيد وشديد التأزم، والسبب في هذا ما خلّفه الاستعمار / الاحتلال بهذه البلدان، إضافة إلى وجود انقسام حول طبيعة اللّغة المفروض أن تكون اللّغة الأولى، هذا الانقسام طبيعته كما جاء على لسان أحمد عزوز «...فهو ظاهريًّا صراع لغوي، لكنه يخفي في حقيقته صراع مصالح ومواقع سياسية واجتماعية، إذ يريد كل فريق أن يظفر بموقع متميّز ضمن المنظومة الثقافية والاجتماعية»[1]، إن جوهر الصّراع في المغرب بين الفُصحى والدارجة صراع لساني / سياسي، يهدفُ إلى جعل الدارجة في مصاف الغالب والفُصحى في مصاف المغلوب، إذ «إن فرض إرادة المعتدي على المعتدى عليه لا يكون في مستوى السلطة وحدها، وإنما يكون في المستوى اللساني أيضًا»[2]. ولا نتفاجأ أن تكون الهيمنة اللّسانيّة هي بوابة الهيمنة على باقي مجالات الحياة، ففرنسا وهي تُخطّط لاستعمار المغرب اختارت ورقة اللّغة كورقة رابحة للانقضاض على هويّة المغرب وثقافته وجعله – كما هو الحال الآن – بلدًا بدون هويّة، بل أحدثت الصّراع بين اللّغات واللّهجات والتّنويعات الموجودة بالمغرب على غرار الفُصحى والعامية والأمازيغية والحسانيّة (لغة جنوب المغرب). لقد أحكمت فرنسا بلغتها الوطنية قبضتها على المجالات الحيوية بالمغرب (الإدارة، الاقتصاد، الإعلام، التّعليم خاصة الجامعي منه) وتركت للفُصحى بعض المجالات المعدودة على رؤوس الأصابع كخطبة يوم الجمعة لصعوبة تحويل لغة الفقيه، بحكم ارتباط القرآن والسنّة باللّغة العربيّة وصعوبة فصلهما عن بعضهما.

أمام هذا الوضع المُتأزم، يبقى الوضع اللّغويّ بالمغرب بين نارين؛ نار إثبات الذات أمام لغة المُستعمِر، ونار التشويش الحاصل بين الفُصحى ونظيرتها العامية، ففرنسا كما سيأتي حاولت محاربة

1- أحمد عزوز ومحمد خاين، **العدالة اللغوية في المجتمع المغاربي** (بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014)، ص 84.

2- سلمان بونعمان، مرجع سابق، ص 46.

اللّغة العربيّة لكونها لغة حافِظة للتراث الإسلاميّ وللهويّة العربيّة، إذ رأت في قضائها على اللّغة العربيّة قضاءً على الإسلام والثقافة العربيّة الإسلاميّة التي تغوص ضد سياسة فرنسا ومصالحها وأطماعها.

تمظهرات العدالة اللّغويّة في الفضاء السوسيو ثقافي المغربي:

بداية وجب علينا تحديد المراد من مفهوم العدالة اللّغويّة، وهل تحقيق هذا المفهوم بما يحمله من مدلولات ممكن في بيئة يتسم الوضع فيها بالتنوع والتباين (لغة راقية عندما نتحدث عن الفرنسيّة ولغة مُنحطة عندما نتحدث عن الفُصحى)؟

إن تعريف مفهوم العدالة التي لا ترتبط بالجانب السياسي فقط، عندما نتحدث مثلا؛ عن مجتمع يزداد فيه الغني غنًا ويزداد فيه الفقير فقرا وقهرًا، وهذا حال مجتمعاتنا العربيّة خاصة الدول الواقعة بشمال القارة السمراء أو ما يُسمى (بالماما أفريكا) على غرار المغرب والجزائر وتونس... بل ترتبط كذلك بالجانب اللّسانيّ، فموضوعنا هنا هو مدى تفعيل تحقق العدالة اللّغويّة على المستوى اللّسانيّ (اللّغويّ) بدولة المغرب.

يُعرّف كل من محمد خاين وأحمد عزوز مفهوم العدالة اللّغويّة بالقول إنها «أدوات إشاعة العدل بين الأفراد، وهي الآلية التي يتحقق بها العدل بين اللغات التي تُؤسس المشهد العام لدولة ما، عبر تبنّي سياسة لغوية تعددية تعترف بحق كل جماعة لغوية في التعاطي بلغتها»[1]. إن هذا التّعريف بما يحمله من قيم نبيلة وإنسانية تعترف بالتعدد صعب التحقق إذا ما تحدثنا عن ما يجري في الواقع، ففي المغرب (حالة الدّراسة) لا توجد هناك عدالة بين اللّغات، بل هناك تراتبية مُكتشفة في واقعنا اللغوي، فالفرنسيّة تلعب دور الرجل المثقف الراقي، في حين تمثل العربيّة الفصحى دور الرجل الكلاسيكي المرتبط بما هو قديم من قرآن وتراث، والغريب عن ما يعيشه العالم من تطور وعولمة وانفتاح، أما الدارجة بتنوعاتها فتمثل دور رجل الشارع باعتبارها تُسخر لحديث العامة من الطبقة الفقيرة غير المثقفة. إن تشبيهي هذا ليس من وحي الخيال، بل هو مُستوحى مما نعيشه من نفاق اجتماعي ينعكس على اللّغة. لعلّ هذا راجع بالدرجة الأولى إلى غياب سياسة لغويّة ناجعة تُسيطر على الوضع اللّغويّ وتبلوره لخدمة المجتمع. وحتى وإن اعترف دستور الدولة بهذه اللّغات ورقيًا، فإنه يبقى عاجزًا عن تحقيق مبدأ المواطنة الدستوريّة القائمة على تساوي الجميع مهما كانت أصولهم

1- أحمد عزوز ومحمد خاين، العدالة اللغوية في المجتمع المغاربي (بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014)، صص15ـ14.

وإثنياتهم ولغاتهم وأديانهم وثقافتهم وانتماءاتهم السياسية (ليبرالي، ماركسي، اشتراكي...)، فالمبدأ الفاصل المفروض بين هؤلاء أن يكون هو «الحق في تكافؤ الفرص، والاستحقاق بحسب القدرات التي يتميز فيها كل فرد داخل المنظومة المجتمعية، وما يقدّمه من إضافة نوعية إلى مجتمعه»[1].

إنّ مفهوم العدالة اللّغويّة، يبقى مفهومًا مُتشعبًا يجرنا إلى مواضيع تتعلق بالهويّة والثقافة، فاللّغة في نهاية المطاف لا تُختزل في أنها مجرد أصوات أو وسائل لتحقيق التواصل، بل تحوي قضايا لها علاقة بعمق المجتمع وبالمساواة بين الأفراد، ولنا أن نضرب لذلك المثال الآتي: الحصول على وظيفة شغل بالمغرب يتوقف على إجادة اللّغة الفرنسيّة، وغير هذا فالمواطن المغربي سيطاله النسيان ويواجه العطالة والتهميش. في هذا الإطار وجب التنبيه على ضرورة محاولة القضاء على تراتبية اللّغات داخل المجتمع الواحد، فأي لغة لها قيمتها ما دامت تؤدي غرض التواصل الذي أحدثت من أجله.

سياسة تلهيج لغة التّدريس:

لم تتوقف حدود فرنسا عند تطبيع ثقافة وهويّة المغرب بروافد التبعيّة والهيمنة الفرنكوفونية، بل سعت إلى السيطرة على أحد المجالات التي تُشكل نبض المجتمعات، ألا وهو مجال التّعليم (التّدريس) باعتبار أنّ كل عمليات النهوض والإصلاح وتغيير الواقع تبدأ من بوابة التربيّة والتّعليم التي تبقى القطب الرئيسي الذي تتجمع عنده كل العمليات الثقافيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة. كما أنّ مراكز التربيّة والتّعليم هي الرحم الذي ينتج الإنسان ويهيكله، ويؤهله للعب دوره المنوط به بوصفه فاعلا في الجماعة التي ينتمي إليها ويتفاعل معها.

ولما كانت عمليّة التربية والتّعليم مرتبطة ارتباطًا وثيقًا باللّغة، إذ لا يمكن لهذه العمليّة أن تتم إلا بحضور اللّغة والمراهنة عليها، لذا سعت فرنسا إلى فرنسة التّعليم كخطوة أولى محاولة منها لطمس معالم اللّغة العربيّة التي تُشكل في مُخيلة الكائن الفرنسي أحد مرتكزات قوة ووحدة الأمة الإسلاميّة، بمحاربتها والتنقيص من شأنها ستندثر وتتهاوى معها وحدة الأمة الإسلاميّة. لا يكمن المشكل هنا فقط، بل سعت فرنسا مؤخرا إلى إحداث بلبلة لغويّة عن طريق ظهور لوبيات (مغربية الأصل / فرنسية الثقافة والهويّة) ممن تحمل حقدا دفينا على العربية، لإحلال الدارجة كلغة تدريس بدل الفصحى في خطوة منها لفتح المجال أمام اللّغة الفرنسيّة لتتفسح كما تريد، هذا الوضع ترتب عنه

1- المرجع نفسه، ص19.

قلق لغويّ حامي الوطيس بين مؤيد للقرار ومعارض له. المؤيدون، وهم قلة، يذهبون في مذهبهم إلى اعتبار أن الدارجة لا تقل شأنًا عن الفصحى كما أنها ستكون حلا لمعضلة التّعليم ولمشكل انتشار الأمية، وحججهم في هذا؛ أنّ العربيّة الفصحى أخفقت بشكل كبير في تحقيق التنمية والتقدم العلمي والمعرفي والاقتصادي، لذا يرون أن الدارجة أهل لهذا التكليف. لكن يمكن هنا أن نطرح السؤال الآتي: هل الدارجة مُؤهلة للعب هذا الدور؟ أو بتساؤل سلمان بونعمان «هل اعتماد الدارجة لغة الكتابة والتعليم سيمكن من تحقيق التقدم المرغوب فيه وتدارك التأخر الذي نعاني منه وحل مشاكل الفشل الدراسي والأمية؟»[1]، أو بسؤال أكثر بساطة ووضوحا، هل الدارجة ستحقق ما أخفقت العربيّة الفصحى في تحقيقه. ينطلق المعارضون من هذا التساؤل المنطقي للرد على هذه الدعاوى التي تزيد الوضع اللّغوي بالمغرب تأزما، إذ يرون أن تعلم الدارجة لن يفيد في شيء فهي أولًا؛ لغة البيت كما أنها ليست لغة الإدارة ولا لغة وثائق البنك أو التأمين أو حتى الوصفة الطبية التي هي بالفرنسيّة، كما أننا لتقعيد الدارجة نحتاج كلفة مالية باهظة، لذا سيكون استعمالها عوض اللّغة العربيّة إذن من أسباب تفشي الأمية وشيوعها لا العكس، فضلا عن هذا فاللّغة العربيّة من اللّغات الست المعترف بها بالأمم المتحدة، كما أنّ لها معايير تحكمها سواء تركيبية (الرتبة: فعل فاعل مفعول) أو صوتية أو صرفية أو معجمية أو دلالية، فالباحث في نهاية الأمر إذا أراد تقديم ورقة بحثية في مؤتمر دولي ما فسيكون مطالبًا بتقديمها بالعربيّة الفصحى لا الدارجة.

لا فائدة من تعلم الدارجة، ما دامت لن تسعفنا وستتخلى عنا في حاجتنا للتعامل مع مجالات المعرفة والحياة من إدارة واقتصاد وخدمات. إن مثل هذه الدعاوى المضلّلة ستزيد الوضع سوءا وستفقر التعليم أكثر مما هو مفتقر، بل وإضعافه شكلا ومضمونا مما سيفضي إلى نتائج يصعب تحديد قدر خطورتها. كما أنه لو افترضنا أن تكون اللّهجة لغة التّدريس بالمغرب فأي لهجة نستعمل؟ لهجة الجنوب أم لهجة الشمال، لهجة الرباط أم لهجة فاس والنواحي...؟ فاللّهجات المغربية تعرف تنوعات وتباينات كبيرة، بل قد نجد داخل المنطقة الواحدة لهجات عديدة متشابهة وراثيًا. فما يطبع هذه اللّهجات إذن؛ هو التباين وعدم الانسجام، وفي هذا يمثل أحمد بوكوس بالقول إنّ «اللهجة الحضرية هي كذلك غير متجانسة؛ لأن اللهجات التي يتحدث بها سكان فاس أو الرباط أو سلا تختلف في عدد من الجوانب المتعلق بالأصوات والصرف والمعجم»[2]، فنجد من التنوعات الصوتية

1- سلمان بونعمان، مرجع سابق، ص107.

2- Ahmed boukous, société, langue et culture au Maroc: enjeux symbolique, (rabat: faculté des lettres et des sciences humaines, université Mohamed 5, 1995), P 95.

النطق بين أصوات (ق) و (ڭ) (الكاف المثلثة) و (أ) في مثل (قالي، ألي، ڭالي) كما نجد بعض مناطق الغرب كالقنيطرة لا تنطق حرف الثاء (ث) إلى غيرها من الاختلافات الصوتية منها التي يصعب معها تحديد لهجة موحدة.

إن أي تعليم لغويّ بالعالم، يسعى إلى تمكين الطفل من اكتساب اللّغة الوطنية الرسمية، إيمانًا من الدولة بأن ذلك التّعليم سيحفظ لها سيادتها وهويتها الوطنية، وغير هذا سيكون نوعا من التأثير على النمو اللّغويّ والمعرفي السليم للطفل، ونزعًا لحقه في التشبع بلغة هويته وفكره وثقافة مجتمعه. نختم هذا المحور بتساؤل للفاسي الفهري يلخص ما قدمناه «ألم تختر الثورة الفرنسية أن تشن حربًا ضروسًا على اللهجات الإقليمية، التي عدت من بقايا الإقطاعية وعدم تكافؤ الفرص، لصالح لسان وطني بدأ لسان أقلية حُوّل إلى لغة ممعيرة ومعممة في كل مناحي الحياة النشيطة؟ فهل مشكلتنا ستحل بالاستمرار في إضعاف لغتنا الوطنية التاريخية والتحريرية والدفاع عن تلهيج مفرط، وتعميم فائق للغات الأجنبية على حساب اللغة الرسمية والألسن الوطنية، وتغذية صراعات لسانية مصطنعة ودائمة»[1].

الافتِراس اللّغوي والهيمَنة الفرنكوفونيّة:

اختيار لفظ الافتراس لم يكن وجهًا من أوجه المبالغة لكنه اختيار نابع من خطورة ما يقع بحالة المغرب، فهناك نوع من التواطؤ الصامت إن صحّ التعبير، بين واضعي السياسات اللّغويّة وأقصد هنا؛ الدولة وبين علماء اللّغة نفسها على إضعافها وتفقيرها وتغييب معالمها. فواضعو السياسات يكتفون بإقرار حماية اللّغة العربيّة دستوريًا وقانونيًا فقط وبالمقابل عزلها واقعيًا وحياتيًا. أما علماء اللّغة فيكتفون بالتشكي من تهميش الدولة لهم، كما لتقاعسهم وكسلهم في خدمتها له نصيب من إضعاف لغة الضاد، ولعل العوامل الداخلية تبقى أخطر من أية عوامل خارجية كالعولمة مثلا.

لا نُنكر هنا إسهام العديد من الكتّاب على غرار عبد العلي الودغيري، عبد القادر الفاسي الفهري وآخرين في تحقيق تنمية اللّغة العربيّة وكذا التجند للدفاع عنها، لكنها تبقى جهودا فردية غير مدعومة من الدولة، لذا فاليد الواحدة لا تصفق كما هو في العُرف الأنثروبولوجي للإنسان. لذا يظل الوضع اللّغويّ بالمغرب مُشتتًا بين:

1- عبد القادر الفاسي الفهري، **اللغة والبيئة** (الرباط، منشورات الزمن، 2003)، صص41.42.

لغة فصحى: لغة الانتماء والهويّة ورمز العروبة، لكنها تظل بعيدة عن نبض الحياة اليومية وعن إنتاج المفاهيم العلميّة الحديثة، كما تُعاني من تهميش من قبل الساسة والعلماء في تطويرها.

لهجات فرعيّة: «تحتكر التخاطب ونبض الحياة، لكنها غير مكتوبة، وغائبة عن الموروث الثقافي وعن ميدان العلم الحديث»[1].

لغات أجنبيّة: تتصدر هذه اللّغات الفرنسيّة، التي تسيطر على المجالات الحيوية بالبلاد كالتجارة المتطورة والاتصالات الرسمية في مجالات الأعمال، كما أنها لغة البنك والتأمين والوصفة الطبية والمعاملات التجارية ولغة الصيدلة ووكالة الأسفار والشركات.

إنّ العربيّة بالمغرب تجد نفسها في وضعية لا تُحسد عليها، حيث تتلقى الاتهامات من جهتين، جهة اللّغة الفرنسيّة المهيمنة على المجالات الحيوية، وجهة الدارجة التي أصبحت تريد أن تقفز لتكون لغة التّدريس! أمام هذا الوضع إذا لم تتحرك الأصوات الفاعلة في المجتمع ستتعمق مسألة اغتراب اللّغة العربيّة داخل معقلها، فبالقضاء عليها سيكون قضاء على أكبر المعالم المحددة لهويّة الوطن.

خاتمة:

إنّ الوضع اللّغويّ بالمغرب يتميز بالتنوع والتعدد، حيث تتزاحم فيه وأحيانًا تتصارع فيه العديد من اللّغات واللّهجات والتنويعات اللّغويّة كالأمازيغية بتنويعاتها الثلاث؛ تاشلحيت، تمازيغت، تاريفيت واللّغة العربيّة الفصحى إلى جانب العاميات ذات الأصول العربيّة من جهة، واللّغات الوافدة بحكم الاستعمار (الفرنسية والإسبانية) من جهة ثانية، وترك هذا الوضع اللّغويّ غير المنظم، كل لغة أو لهجة أو تنويعة لغوية تحتل منطقة جغرافية أو مجالا اجتماعيًا أو قطاعًا معينا، إما بحكم عدد الناطقين بها، أو بحكم القوة والثقل الاقتصادي أو الثقافي أو الديني أو السلطوي للفئة الاجتماعيّة الحاملة لها أو بحسب الوظائف التواصلية والمهام الاجتماعية والثقافية التي تؤديها.

إذا كانت اللّغة العربيّة الفصحى هي لغة التواصل الرسمية في الوثائق والمرافق العمومية ولغة الشأن الديني، وتزاحمها الفرنسية في المؤسسات الإدارية والإعلامية وفي التعليم العالي، فإن الأمازيغية بتنويعاتها والعاميات العربيّة هي لغة التواصل في البيت والشارع. هذا الوضع الواقعي يعيش مفارقات

1- سلمان بونعمان، مرجع سابق، ص232.

غريبة، إذ لا علاقة له بالوضع القانوني المنصوص عليه في الدستور وقوانين الدولة المغربية، فاللّغة العربيّة هي اللّغة الرسمية دستوريًا، ولكن اللّغة الفرنسيّة هي اللّغة الرسمية واقعيًا لكونها لغة الإدارة والاقتصاد والتّعليم العالي، وجزء مهم من الإعلام المكتوب والمسموع والإعلام البصري.

ونحن نرى، أنّ الشأن اللّغويّ في المغرب لا ينفك رهيناً بحالة الشدّ والجذب والأخذ والردّ والجدل الذي لا ينقطعُ، والسببُ جليٌّ؛ وهو أنّ الحكومة لا تملكُ زمام الحلّ ولا تستطيع أن تبتّ في شيء من أمور السّيادة ومنها السيادة اللّغويّة، حيث لا تنفك عن الهروب من الواقع والارتماء في حضن الفرنسيّة كهروب صريح من تدبير المشهد اللّغويّ، وإرضاء للمُستعمر الفرنسيّ الذي ما يزال يتحكم في البلد ويسيّره.

توصيات:

بعد قراءتي المُتمعنة للنصوص التي تناولت مسألة الوضع اللّغويّ بالمغرب، خرجتُ ببعض التوصيات المتواضعة لعلّها تفيد في تحسين ما يمكن تحسينه أو على الأقل تحيي الضمائر العربيّة التي ماتت، ومنها:

توحيد جهود المجامع والمعاهد اللّغويّة في العالم العربي، فعيب أن تظل هذه الجهود مبعثرة؛ في ضوء غياب التنسيق، مما سيؤثر سلبا في إعطاء طفرة نوعية لمستقبل اللّغة العربيّة.

المساعدة في التنبيه والإشعار للخطر الذي تواجهه اللّغة العربيّة في الدول العربيّة، حيث يظل التركيز الشديد على اللّغات الأجنبية واللّهجات المحليّة.

دفع وسائل الإعلام سواء المكتوبة أو المقروءة أو المسموعة لخدمة اللّغة العربيّة، عن طريق إنشاء برامج ثقافية وكذا مخاطبة الجمهور باللّغة العربيّة. وكذا طرح اللّغة الإعلاميّة كأداة تعبيرية للمفكرين والكتاب والمتحدثين بشأن اللّغة العربيّة.

تبني نموذج يقر بأنّ اللّسان العربيّ هو لسان الديمقراطية والاقتصاد والتّعليم أساسا، وهو يتكامل مع اللّسان الأمازيغي واللّسان الأجنبيّ ولا يتصارع معهما.

جعل المدارس أداة تشجع التلاميذ على النشر باللّغة العربيّة عن طريق إنشاء مجلة للمدرسة، ومعهد الدوحة للدّراسات العُليا مثال لهذا الإجراء بخلقه لنشرة زاجل التي تصدر شهريًا.

العمل على برمجة مؤتمرات للّغة العربيّة بالبلدان العربيّة يتم فيها تبادل الأفكار والعمل على الخروج بتوصيات لتطوير اللّغة العربيّة.

الكف عن التكاسل والقول بقدسية اللّغة العربيّة، فمثل هذه الأقوال الإيديولوجية المضلّلة تزيد وضع العربيّة فقط سوءا على سوء.

تشجيع التّرجمة إلى العربيّة بإنشاء جوائز وتحفيزات مالية، فبالتّرجمة تنمو اللّغة وتتقوى.

العمل على تعريب التّعليم الجامعي، فعيب أن تبقى العلوم أجنبيّة دون تعريبها بلسان قومها.من الحلّ والفرارِ من مَركزِ الضّوءِ إلى ظلّ اللغة الفرنسيّة؛ لأنّ التّوليّ عن الزّحفِ والارتماءَ في أحضان اللغة الفرنسيّة هُروبٌ صريحٌ من تدبير المشهَد اللغوي وادّعاءٌ باتّخاذ موقف الحيادِ في القضيّة، وإرضاءٌ للمُستعمرِ الفرنسيّ الذي ما زال يتحكّم في البَلَد ويُسيّرُه من خلالِ أبنائه من المغاربَة الذين تربّوا في أحضانه ورَضعوا من لبانِه وسكروا بخُمورِه ورقَصوا على جثث الشّهداءِ الذين حرّرروا البلَدَ من بَراثنِهمن الحلّ والفرارِ من مَركزِ الضّوءِ إلى ظلّ اللغة الفرنسيّة؛ لأنّ التّوليّ عن الزّحفِ والارتماءَ في أحضان اللغة الفرنسيّة هُروبٌ صريحٌ من تدبير المشهَد اللغوي وادّعاءٌ باتّخاذ موقف الحيادِ في القضيّة، وإرضاءٌ للمُستعمرِ الفرنسيّ الذي ما زال يتحكّم في البَلَد ويُسيّرُه من خلالِ أبنائه من المغاربَة الذين تربّوا في أحضانه ورَضعوا من لبانِه وسكروا بخُمورِه ورقَصوا على جثث الشّهداءِ الذين حرّرروا البلَدَ من بَراثنِهمن الحلّ والفرارِ من مَركزِ الضّوءِ إلى ظلّ اللغة الفرنسيّة؛ لأنّ التّوليّ عن الزّحفِ والارتماءَ في أحضان اللغة الفرنسيّة هُروبٌ صريحٌ من تدبير المشهَد اللغوي وادّعاءٌ باتّخاذ موقف الحيادِ في القضيّة، وإرضاءٌ للمُستعمرِ الفرنسيّ الذي ما زال يتحكّم في البَلَد ويُسيّرُه من خلالِ أبنائه من المغاربَة الذين تربّوا في أحضانه ورَضعوا من لبانِه وسكروا بخُمورِه ورقَصوا على جثث الشّهداءِ الذين حرّرروا ال

البيبليوغرافيا

ابن جني، أبو الفتح عثمان. الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة، دار الكتب المصرية، 2006.

بونعمان، سلمان، النهضة اللغوية وخطاب التلهيج الفرنكفوني في نقد الاستعمار اللغوي الجديد حالة المغرب، بيروت، مركز نماء للبحوث والدراسات، 2014.

ظاظا، حسن، كلام العرب، بيروت، دار النهضة العربية، 1976.

عزوز، أحمد. خاين، محمد، العدالة اللغوية في المجتمع المغاربي، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014.

الفاسي الفهري، عبد القادر، اللغة والبيئة، الرباط، منشورات الزمن، 2003.

المعجم الوسيط، القاهرة، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1998.

مها محمد فوزي معاذ، الأنثروبولوجيا اللغوية، القاهرة، دار المعرفة الجامعية، 2009.

-Ahmed boukous, société, langue et culture au Maroc: enjeux symbolique, Rabat: faculté des lettres et des sciences humaines, université Mohamed 5, 1995.

-Chomsky, Noam. Knowledge of language: Its nature, origine, and use. New York, Greenwood Publishing Group, 1986.

-Saussure, Ferdinand. Cours de Linguistique Générale, université de Genève, Paris, 1995.





يأتي هذا الاستكتاب ليوسع من دائرة البحث في هذا المجال المترنح بين السياسي واللغوي، وليقدم إجابات تروم العلمية في مسألة اللغة واللهجة والعلاقة بينهما، ثم علاقة الموضوع بالسياسات اللغوية والتخطيط اللغوي، وبعض مباحث اللسانيات التطبيقية والسوسيولسانيات وغيرها.

ويسهم في هذا العمل جماعة من الباحثين في اللسانيات واللغة من جامعات مغربية مختلفة، منها جامعة محمد الخامس، وجامعة السلطان مولاي سليمان، وجامعة محمد الأول، وجامعة القاضي عياض، وجامعة عبد الملك السعدي، وجامعة ابن طفيل.

